إشكالية التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني في الإسلام
بين مثالية الفكر وأزمة التطبيق

إعداد

د. عصام كمال عبده محمد المصري

أستاذ مساعد الأخلاق الإسلامية كلية الآداب _جامعة دمنهور

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة إشكالية التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني في الإسلام ، والتي انبثقت منها إشكالية التسامح الفلسفي بين غياب المفهوم وحضور المعنى ، حيث غاب مفهوم التسامح في النتائج الفلسفي اليوناني ، فضلاً عن الفلسفة الإسلامية وظل هذا المفهوم موضوع تشكيك واعتراض ، ولم يُقبل في رحاب الفلسفة ، إلا بامتعاض . لقد غاب المفهوم غير أنه احتفظ بحضور المعنى ، فقد جاء بما يقارب أو يدل على معناه حين تمت الدعوة للتشاور ، والتآزر ، والتواصل ، والتراحم .... وغيرها من معاني داعية إلي حق الاختلاف الذي لا يلغي الائتلاف بين البشر .

كما تناولت الدراسة تأسيس الخطاب التسامحي الإنساني في الإسلام ، وكيف رفع الإسلام شعار التسامح في الخطاب الإنساني قانوناً كلياً لا يقبل التجزئة ، وجعله دستوراً لحياة البشر ، فلا فضل لأحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . إنه تسامُحٌ يبدو - أحياناً – فوق الطاقة البشرية . وبهذا الأفق الإسلامي المستنير في التسامح ، احتضن الإسلام الجميع ، وجعل الإيمان فيه شاملاً لكل ما أَوْحَتْ به السماء ، وبذلك جعل الإسلام الآخر جزءً من الذات ، فتَجاوَز بهذا المستوي غير المسبوق في السماحة ، مجرد الاعتراف بالآخر والقبول به .

كما عرضنا لتجليات الخطاب التسامحي الإنساني واخترنا من السنة الشريفة (قيم بنود وثيقة المدينة) حيث كانت المدينة قبل هجرة الرسول صلي الله عليه وسلم إليها مسرحاً للحروب والمعارك الدامية الطويلة ، ومزجت المدينة بين ديانات ومعتقدات مختلفة ، وساد فيها النظام القبلي الذي يكرس الطبقية والتمييز القائم على أعراف وقوانين لا صلة لها بالديانات السماوية ، وظلت على هذه الحالة ، إلى أن قدِم إليها الرسول صلي الله عليه وسلم ، وبنى بها مجتمعاً جديداً قائماً على أسس التسامح والاستقرار . وأظهرنا من وثيقة المدينة جانب من قيم التسامح والمؤاخاة ، الأمر الذي يُعد حلاً لإشكالية التسامح في الفكر الإسلامي .

ثم اختتمنا الدراسة بالحديث عن أخلاق التسامح في الإسلام (مثالية الفكر وعوائق التطبيق) ليتضح لنا جلياً سمو الفكر الإسلامي ومثاليته السمحة ، رغم أزمة التطبيق الفعلي لهذه المبادئ المثالية في الفكر الإسلامي المعاصر ، لتأتي هذه الدراسة دعوة إلي أن نُجْلِي مَعَالِم هذه الصورة المشرقة في واقعنا ، الذي يشهد سيْلا من : العَدَاء ، والأحقاد ، والاستقطاب الْحاد لكلٍّ منا تجاه الآخر .

الكلمات الإفتتاحية : الإشكالية ، التسامح ، الإخاء ، الخطاب الإنساني ، الفكر الإسلامي ، وثيقة المدينة ، العدل ، المساواة ، الآخر ، التعايش السلمي .

المقدمة .

لا يزال الفكر الإسلامي – رغم زخم المناهج والرؤى التي يصدر عنها – متعثّرًا في تحويل قيم التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني إلى وعيٍ واقعي راسخ ، يترجم عنه سلوك اجتماعيّ مُعَمَّم واختيارٌ سياسيّ ثابت . ذلك أنّه فكرٌ يعتني بالإشكاليّات التي تعكس أطروحات أيديولوجيّة ، أكثر من اهتمامه بتلك التي تضرب بأسباب في شروط الاجتماع الإنساني العادل والمترجم لمنظومة القيم الكونيّة ، وأهمّها إشكاليّة العلاقة بين الذوات الاجتماعيّة والمعايير المحدّدة لها .

ولا تدعي هذه الدراسة أنّها ستلم بهذه الإشكاليّة كاملة ، ولا تعد – أيضاً – بفتح جديد السبل في مقاربتها ، بل قصارى الجهد أن تثير من القضايا ما يمكن أن يساعد على الوعي بقيمة تغيير زاوية النظر إليها . هو تغيير ننقل بموجبه التعامل مع مفهوم أساسيّ فيها وهو مفهوم التسامح ، من الدلالة الأخلاقيّة التي ظلّت محاصرة له في مجال التداول ، إلى الدلالة التي يغدو بموجبها شرطاً من شروط التعامل الفعلي علي أرض الواقع . والدافع إلى ضرورة هذا التغيير أمران : الأوّل هو الالتزام بالمكتسبات الفكريّة التي حققّها المفهوم في الثقافة الإسلامية ، والثاني هو واقع المجتمعات العربيّة التي تعيش – منذ مطلع هذه الألفيّة – تحوّلات مربكة عمّقت مشاكلها في إدارة التنوّع والاختلاف .

إن مسألة التسامح لا تبدو " إشكالية " حقيقية في المجتمعات المفتوحة ، وإن كان يشوبها بعض الإرهاصات والانتهاكات الصارخة – خصوصاً – على صعيد الواقع الفعلي . فقد وصلت تلك المجتمعات إلى نوع من التضامن بعد معاناة طويلة ، وحروب طاحنة ؛ لتدخل مرحلة التسامح ، وتتعامل به كأمر واقع ، بل لا غنى عنه ؛ لاستمرار تطور المجتمع ، كمنظومة فكرية وأخلاقية ، سواء على الصعيد : المذهبي ، أم الاجتماعي ، أم الثقافي . ولكنْ – للأسف الشديد – فإن التسامح كمفهوم ، ما زال غير مُتحقَّق – بواقعية – في عالمنا العربي والإسلامي إلي حد كبير . إن غياب التسامح ، يعني انتشار ظواهر : التعصب ، والعنف ، وسيادة عقلية التحريم والتجريم من قِبَل جماعات التطرف والتشدد ، سواء على الصعيد : الفكري ، أم السياسي ، أم الاجتماعي ، أم الثقافي ، أم ما يتعلق بنمط الحياة .

وقد يُظَنُّ أن هناك مجتمعاً بدون اختلاف ، أو معارضة . لذا يمكن القول : إن مجتمعاً بدون اختلاف ، أو تَمايُز ، أو خصوصيات ، هو مجتمع من صُنْع الخيال ، ولا وجود له على أرض الواقع ؛ لأن التماثل هو ضرْبٌ من المحال . وإن وُجِدَ مثل هذا المجتمع فهو مجتمع ميت – بلا أدنى شك – فالاختلاف هو من طبيعة الأشياء ، وهكذا فإن الاختلاف والتعارَض ، هو من صلب حياة البشر . ويمكن القول : إن في كل إيديولوجية ، ثَمَّة مقدار من التبرير والسفسطة ، يتطلبها البناء الفكري ، والدفاع عن المواقف والآراء ، التي لا تخلو من ضرْب من الاستبداد ، والذَّوْد عن العقيدة ، بل والتعصب الذميم ، والانغلاق ، ونفي الآخر . ويصل الأمر – كلما كانت المغالاة لفرض الرأي – حد ممارسة الإرهاب ، وحينئذٍ يصبح الحوار مجرد رغبة من " الآخر" ؛ لخرق : السنن ، والشرائع . وهكذا تبقي إشكالية التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني في الإسلام بين مثالية الفكر وأزمة التطبيق محور حيوي هام يبعث علي دراسته لسد أغواره ومعالجة نقائصه .

ومما دفعني إلى اختيار هذه الورقة البحثية جملة من الأسباب منها :

١ – الكشف عن الفارق النوعيّ بين أن يتواصل عدّ التسامح مجرّد مزيّة أخلاقيّة يتكرّم بها المرء على المخالف له بالاعتراف ، وأن يُعَدَّ واجبًا واقعياً يفرض على الإنسان احترام الآخر في نطاق التساوي في الحقوق والواجبات ، ومن دون أن يكون لانتماءاتهم العقدية أو المذهبية أو العرقيّة أو غيرها ، تأثيرٌ سلبيّ أو إيجابيّ في تحديد مكانتهم .

٢ – مواجهة أخطر الظواهر التي برزت في هذا العصر ، والمتمثلة في : الانحرافات الفكرية ، والمفاهيم ، والتصورات الخاطئة ، التي جعلَتْ من البعض عوامل هدْم وتخريب ، وإرهاب وإفساد . ومن ثم كانت الحاجة ضرورية إلى العودة الصحيحة المنبثقة من القرآن الكريم ، والسُنة النبوية المشرفة ، فالإسلام بتعاليمه الأخلاقية زاخر بكل : المبادئ ، والقيم ، والعناصر الضرورية ؛ لقيام مجتمع سليم ، وغنِيٌّ بالأسس المثمرة ، التي تجعل من الفرد إنساناً صالحاً ، فاعلاً في مجتمعه .

٣ – إن تناول مفهوم التسامح عن طريق التساؤل الفلسفي ، والتحليل المفهومي ، أمرٌ تستلزمه السمة الإشكالية لمفهوم التسامح ذاته . فليس من قبيل المبالغة القول إن مفهوم التسامح هو(أحد) أكثر المفاهيم الأخلاقية غموضًا من حيث إشكاليته على الإطلاق .

٤ – إن الثقافة العربيّة – شأنها شأن سائر الثقافات – مطالبة بأن توجد لها موطئ قدم في المنجزات القيميّة الكونيّة . ليس بمناقشة هذه المنجزات الفكريّة فقط ، بل باستثمار خصوصيّاتها الفكريّة والقيميّة التي تمثّل رافدًا من روافد المشترك القيميّ الكونيّ . ولا يُتوقّع من مجتمع تعدّديّ مثل المجتمع العربي الإسلاميّ ، أن يكون خاليًا من رؤى كلاميّة ، أو فلسفيّة ، أو دينيّة ، تشرّع للتعدّد ، وتقرّ التسامح مبدأ في التعامل ، بالمفهوم الذي يقتضيه الانتماء إلى العصر. وهو ما كان حافزاً لنا علي إيضاحه ومناقشته .

٥ – أمر أخر كان دافعاً لتناول هذه الدراسة وهي أن الصراع المذهبي والعقديّ في العالم الإسلامي ما زال يعوق مسارها التنمويّ ، وخطابات العنف والكراهية الباعثة على كسر وحدة المجتمع والحاملة لأفكار متعصّبة ما فتئت تتنامى موجدة لها متقبّلين داخل الجماعات والطوائف . وعلي المستوى الخارجي ما فتئت خطابات " الإسلاموفوبيا " التي تقرن بين المسلمين ورفض الآخر المختلف ، وتَصِم الثقافة العربيّة الإسلاميّة بعدم القدرة على استيعاب قيم التسامح فضلًا عن إنتاجها ، تحرج المسلمين وتوقعهم أحيانًا في ردود أفعال متشنّجة . مما حدا بنا لتصحيح هذه الأفكار المغلوطة من خلال الأدلة والبراهين .

– إشكالية الدراسة .

إن تحوّل إشكالية التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني في الإسلام من مزيّة أخلاقيّة إلي أزمة فعلية من ناحية التطبيق ظلّ في السياق العربي ، مشروطًا بمقاربة مزدوجة : بقدر ما تنهل من منجزات الفكر الإنساني ، تستثمر الخصوصيّة الداعمة لهذه المنجزات والباعثة على إبداع بدائل من شأنها أن تثريها . ومن هذه الزاوية بدت لنا أسئلةٌ حَريّة بالطرح : أوّلها : كيف يمكن أن نبعث في الوعي العربي فكرة التمييز بين التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني الفعليّ ، والتسامح الشكليّ السائد ، الذي لا يعدو أن يكون تعايشًا في نطاق اللّاتسامح ؟ وهل ترسيخ مبدأ التسامح في الثقافة المتداولة في الواقع الإسلامي ، مشدود – فحسب – إلى تحليل قيم التعدّديّة ؟ أم هو مشدود – أيضاً – وقبل ذلك إلى ضرورة نقد خطابات التعصّب الموروثة

والحادثة ، التي لا تزال توجّه جانباً من الوعي العربي ؟ وتبدو بداهةُ الإجابة عن هذه التساؤلات .. من بداهة ما يُنتظَر من الفكر الإسلامي من نقد وتأسيس لقيمة التسامح ولغيرها من قيم العصر.. ومن هنا يتفرع من هذه التساؤلات ما يلي :

١- ما هي إشكالية التسامح الفلسفي بين غياب المفهوم وحضور المعني ؟

٢ – كيف تأسس الخطاب التسامحي الإنساني في الإسلام ؟

٣ – ما هي تجليات الخطاب التسامحي الإنساني من خلال قيم بنود وثيقة المدينة ؟

- الدراسات السابقة :

تناولتْ بعض الدراساتٌ مفهوم التسامح في الفكر الإسلامي وهي علي نوعين :

النوع الأول : وهو تقليدي التوجّه ، مشدود بشكل كبير إلى الردّ على ما يوجّه إلى الإسلام – اليوم – من اتّهام بالعنف ، محاولاً إثبات خصوصيّاته المتسامحة ، ممثّلة في نصوصه التأسيسيّة وخاصّة القرآن الكريم ، ولذلك فهو يكتفي بانتقاء نصوص يحمّلها من المعاني ما يريد ، وما يخدم غايته المباشرة ، الداعية إلى الالتزام بمقتضيات التسامح – اليوم – ولتحقيق هذه الغاية يعمد أتباع هذا النوع ، إلى اعتماد أسلوب المناظرات القديم ، الرامي إلى إفحام الخَصم بمجرّد حشْد الأدلّة . وعلي مستوى النتائج ، فإنه لم يتجاوز الطابع التمجيدي ، الذي يرضي غرور الذات في إعلائها لخصوصيّاتها ، وفي تعاليها على الآخر .

أمّا النوع الثاني : فهو الدراسات النقديّة الحديثة وهي – مع ندرتها – إلا أنها قدّمت قراءات تحليليّة متعمّقة لمفهوم التسامح في التراث ، وتوصّلَت إلى نتائج ذات بال ، في البعدين : الإبستمولوجي ، والتاريخيّ الاجتماعي . لكنّها تظلّ في حاجة إلى مزيد من التدقيق والمراجعة ، نظراً إلى كونها ركّزت علي جوانب دون أخرى ، ونظراً لسقوطها في تعميم نتائجها – أحياناً – تعميماً جعلها تساهم – عن غير قصد – في إسدال الستار على تجارب ومواقف فريدة ، لا يمكن أن تنسحب عليها تلك الاستنتاجات . وتتّفق هذه الدراسات – تقريباً – فى حصْر التسامح في نزوعٍ فكريٍّ لدي هذا المفكر أو ذاك ، وتوسيع دائرته ؛ ليشمل أنساقاً فكريّة كاملة . ولكنّها في كلّ الحالات تقف عند مستوى المواقف الفكريّة النظريّة ، ولا تتعرّض – أبداً – للتجارب التطبيقية ، التي كانت في بُعد من أبعادها ، تَرْجَمَةً لهذه المواقف . ومثالاً لبعض الدراسات السابقة ما يلي :

١ – فائز صالح محمود اللهيبي : التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، المجلد ٩ العدد ٢ ، الموصل ٢٠٠٩ .

هدفت هذه الدراسة إلي تناول التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي وتوصلت إلي العديد من النتائج أهمها : أن مبدأ التسامح ليس لصيقاً بتراث معين أو مجتمع محدد ، إنّه يمتد عبر العصور ، فلا هو غربي ولا هو شرقي . فالأديان جميعها تعلن تمسكها بالتسامح . والقرآن الكريم تحدث عن حرية الأديان ، وهو ما يؤكد أنّ التسامح يعد ركن أساسي في الإسلام إذْ أكدّ على حرية العقيدة لغير المسلمين وحرية التعبد وعدم الإكراه أو الإجبار ، والتزام احترام الآخر تحت القاعدة الإسلامية المعروفة لا إكراه في الدين . ورغم قيمة هذه الدراسة إلا أنها تختلف في الطرح الفلسفي لإشكالية التسامح عن فكرة دراستنا حيث أضفنا قيم الخطاب التسامحي الإنساني في ضوء وثيقة المدينة ليتضح لنا ما أثارته وثيقة المدينة من قيم كثيرة منها : الإخاء والتسامح ، وقبول الآخر والتعايش السلمي ، والعدل والمساواة . وقيمة التواصل .

٢ – عبد الرحمن معاشي : مظاهر التسامح والاعتدال وأثرهما في تأسيس الخطاب الإنساني وتوجيهه ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد ٣٨ ، الجزائر ، ٢٠١٨ .

تناولت هذه الدراسة التسامح والاعتدال في المفهوم الإسلامي الواسع ودور ذلك في تأسيس الخطاب الإسلامي والإنساني وتوجيهه توجيها بنائياً صحيحاً ، بعيدا عن كل أنواع الهدم والتشتيت والكراهية . ورصدت هذا الموضوع المهم من خلال بعض مواقف النبي صلى الله عليه وسلم في الحضر والسفر ، وفي السِّلم والحرب ، وتستضيء بتلك المواقف الخالدة وتجعل منها مادَّة لتجاوز أزمة الخطاب المعاصر ولتأسيس الخطاب الدَّعوي وتوجيهه بما يتناغم وينسجم مع رسالة الإسلام العالمية . ورغم أهمية هذه الدراسة ، إلا أنها لم تتناول إشكالية التسامح بين غياب المفهوم وحضور المعني وهو ما حرصنا عليه جملة وتفصيلاً .

– محتوى الدراسة .

لتحقيق أهداف هذه الدراسة ، ولتدقيق صِدْق فروضها وتساؤلاتها وفي ضوء المنهجية العلمية ، التي ألتزم بها تم تقسيم الدراسة إلي العناصر التالية :

أولاً : مفاهيم الدراسة .

ثانياً : إشكالية التسامح الفلسفي بين غياب المفهوم وحضور المعني .

ثالثاً : تأسيس الخطاب التسامحي الإنساني في الإسلام بوازع العقل .

رابعاً : تجليات الخطاب التسامحي الإنساني من خلال قيم بنود وثيقة المدينة .

خامساً : أخلاق التسامح في الإسلام (مثالية الفكر وعوائق التطبيق)

– منهج الدراسة .

تبنّت الدراسة المنهج الاستقرائي المتمثل في تتبع الآيات التي تعكس رؤية القرآن للتسامح ، ثم الوصفي التحليلي الذي يتجلى في تحليل المعاني انطلاقًا من التحليل الدلالي للكلمات ذات الأهمية في تحديد رؤية القرآن الكريم لمفهوم التسامح من خلال السياقات التي تحكم نظرته إلى العالم ، توصلاً إلى تفسير منطقي مدعم بالبراهين .

أسال الله عز وجل أن يغفر لنا ما وقع منا من خطأ ، أو تقصير ، أو قصور ، وأن يتقبل جهدنا المتواضع ، وأن يعيننا على الإخلاص في القول والعمل ، ونعوذ بالله العلي العظيم من فتنة القول ، ومن حرمان التوفيق . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أولاً : مفاهيم الدراسة .

في عالم دب فيه الصراعات ، والحروب ، والعنصرية ، والأنانية ، والجشع ، والظلم . كان حري أن تتضافر جهودنا للسلام ، والاستقرار ، والتعاون ، والعدل ، والتعايش ، والتسامح . والإسلام بجوهره الصافي والوسطى قد أرسى أسساً وقواعد تبني ولا تهدم ، وتجمع ولا تفرق ، وعليها تزدهر الحضارات وتتقدم الأمم . (١) فلا تختص بحالة دون أخرى ، وإنما تشمل جميع مجالات الحياة الفردية ، والجماعية في معاملة أفراد المجتمع بعضهم بعضاً ، أو في معاملة غير المسلمين في حالتي السلم والحرب . (٢) ولذا فثقافة التسامح باتت من الضروريات الملحة ، التي يفرضها الواقع الراهن ؛ لمواجهة العنف المجتمعي ، مما يوجب الحرص على ترسيخ القيم الإنسانية . (٣) ولابد لنا – منذ البداية – من مدخل مفاهيمي للتسامح ، انطلاقاً من أن كل دراسة جادة لابد لها أن تبدأ من المداخل اللغوية ، والاصطلاحية ؛ لتحديد المفاهيم والمحاور التي ستقوم حولها الدراسة خاصة وأن " قضية المصطلح تكاد تكون من أدق القضايا في عصرنا ، فالمصطلح كما هو معروف مفتاح العلم والثقافة ، وبدون القدرة على استيعاب المصطلحات ، وتوليدها ، وفهمها لا يمكن استقرار علم ولا تحقيق فهم . ." (٤) " إن تحديد مضامين المصطلحات ، واكتشاف مناطق الاتفاق ، والتمايز في معاني ومفاهيم هذه المصطلحات – وخصوصاً تلك المصطلحات الأكثرُ شيوعاً ، والأكثرُ إثارةً للجدل بين تيارات الفكر في عصرنا وفي واقعنا – هي مهمة أساسية وأولية ، بالنسبة لأي حوار فكري حقيقي وجاد ، يُنقِذ حياتنا الفكرية من خطر الاستقطاب الحاد ، ويوجد لغةً فكريةً واحدةً بين الفرقاء المتحاورين . " (٥) ومن هنا نحاول إيضاح المعني اللغوي والاصطلاحي للتسامح – علي عجل نظراً للدراسات المتعددة التي تناولتها من هذا المنظور – وذلك فيما يلي :

١ – التسامح لغة .

إن أصل التسامح في اللغة العربية يعود إلى مادة سمح ، بمعنى اللين والسهولة ، ويأتي في اللغة مرادف للتسامح ، ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس جاءت كلمة سمح ، السين والميم والحاء أصلا يدل على سلاسة وسهولة . (٦) وفي مختار الصحاح جاءت كلمة سمح لتدل على السماح والسماحة والمسامحة والتسميح وتعني الجود واسمح إذا جاد وأعطى بكرم وسخاء ، وسمح له أي أعطاه ، وسمح من باب صار سمحاً وقوم سمحاء بوزن فقهاء ، وامرأة سمحة ، ونسوة سماح . (٧)

كما يشير ابن منظور في لسان العرب إلى التسامح والتساهل بوصفهما مترادفين ، واسمح وسامح أي وافقني على المطلوب ، وفي قولهم الحنفية السمحة ، أي التي ليس فيها ضيق ولا شدة ، وتقول العرب عليك بالحق فإن فيه لمسمحاً ، أي متسعاً ، ويقال أسمَحَت نفسه إذا انقادت لتدل على المتابعة والانقياد . (٨) ويقول الفيروز أبادي في القاموس المحيط المساهلة كالمسامحة ، وتسامحوا تساهلوا ، وساهلة ياسرة والسمحة الملة التي ما فيها ضيق . (٩) فلفظ التسامح بذلك يحمل معاني : الجود ، والكرم ، والسهولة ، والموافقة ، واللين ، والانقياد ، والسعة ، بعيداً عن الضيق والشدة ، وصفة التفاعل في لفظ تسامح ليس فيها جانبان كما في تَرَاسَل وتَقَاتَل ، وإنما يراد بها المبالغة في الفعل . (١٠)

٢ – التسامح اصطلاحاً .

التسامح اصطلاحاً يعني " قبول واحترام وتقدير التنوع الثري لثقافات عالَمنا ، وأنماطه التعبيرية المختلفة ، وطرق تحقيق كينونتنا الإنسانية ، فهو تناسق في الاختلاف ، وليس واجباً أخلاقياً – فقط – بل

هو واجب سياسي وحقوقي – أيضاً – وهو فضيلة تعمل على إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب ، وهو ليس مجرد إقرار ، ولا مجرد تنازُل أو تجاوُز ، بل هو موقف فعَّال مدعوم بالاعتراف بالحقوق العالمية للإنسان ، والحريات الأساسية للآخرين . " (١١) يقول محمد عابد الجابري المعنى الاصطلاحي للتسامح يعني : أن لا يتخلى المرء عن قناعته ، ولا أن يكف عن إظهارها ، والدفاع عنها ، والدعوة لها ، بل يعني الامتناع عن استعمال أية وسيلة من وسائل العنف ، والتجريح ، وبقولٍ مختصَر : احترام الآراء ، وليس فرضها . (١٢) وهناك جهة نظر أخري تبناها محمد أركون عن التسامح فيري أنه : " الاعتراف للفرد المواطن ، بحقه في أن يعبِّر عن كل الأفكار : السياسية ، والدينية ، والفلسفية التي يريدها ، ولا أحد يستطيع أن يعاقبه على آرائه ، إلا إذا حاول فرضها بالقوة والعنف على الآخرين . (١٣) وبذلك اختلف وجهات النظر حول التسامح من ناحية الاصطلاح .

ثانياً : إشكالية التسامح الفلسفي بين غياب المفهوم وحضور المعني .

قد يبدو الحديث عن إشكالية التسامح من ناحية المفهوم ، ضرباً من التجريد لا يخدم الغرض ، من حيث إن التسامح قيمة أخلاقية ، هي إلى العمل أنسب منها إلى النظر . فأي إغراق في التحليل الفلسفي للمفهوم ، من شأنه الخروج بالنقاش إلى ترف القول . فهو بهذا المعنى حديث بلا هدف ، ونزاع لا تترتب عليه ثمرة . وهذا اعتقاد مغالط ، وإن كان يستند إلى عموم ما تقع فيه مجمل التنظيرات حول القيم ، حيث قلَّما تحرر محل النزاع ، وقلَّما يسرت ولوج الموضوع من دون صعوبات مفهومية من ذاك القبيل . غير أن حصول مثل هذا النوع من الانزياح عن الأغراض الموضوعية لأي نقاش مفهومي ، ليس دليلاً على عدم جدوى ذلك . إن جُل مشكلاتنا المعرفية تبدأ من الأرضية المفاهيمية التي تنطلق منها جُل حواراتنا أو نزاعاتنا . فبينما يبدو لنا الأمر كما لو كنا متفقين على منطلقات مشتركة في النقاش ، فإن الحقيقة المرة ، هي أننا ننطلق من أشد ما يكون الاختلاف قسوة في منطلقاتنا المفهومية . فلو أننا وعينا بذلك منذ الوهلة الأولى لكان الأمر واضحاً يسيراً أمام المتناظرين ، فالاختلاف المفهومي لا يؤدي إلى اتفاق ، بل مقتضى الاتفاق ولو على أرضية مشتركة للحوار ، يقتضي تفاهماً مشتركاً محكوماً بمعايير نظرية . ومن هنا كان البحث عن إشكالية التسامح ونبدأ بالتساؤلات البديهية ما التسامح ؟ وما إشكاليته ؟ إن صيغة السؤال بحد ذاتها تعيدنا إلى العصر اليوناني فبمثل هذا النوع من الأسئلة افتتحت الفلسفة اليونانية مع سقراط وأفلاطون مسيرتها مثل ما العدالة ؟ وما الحقيقة ؟ وما الجمال ؟ .... الخ ولم تسقط قيمة هذه الأسئلة التي تبحث عن الوصول إلى ماهيات الأشياء والأفكار ، فللتحليل المفهومي حضور قوي وبارز ودور منهجي ومعرفي بالغ الأهمية .

إن إشكالية هذا الموضوع ، أو تلك المسألة هي التي تدفعنا ، أو ينبغي أن تدفعنا إلى طرحها في صيغة التساؤل الفلسفي المفتوح ، لا السؤال الذي يبحث عن إجابة تغلقة . إن في التساؤل وعي بأن المسألة التي يجري تناولها شائكة ومبعث للحيرة والاستغراب ، وتحتاج إلى تفكير وحوار . فتناول مفهوم التسامح عن طريق التساؤل الفلسفي والتحليل المفهومي ، أمر تستلزمه السمة الإشكالية لمفهوم التسامح ذاته . (١٤) ولذلك يُعد أحد أكثر المفاهيم الأخلاقية غموضاً على الإطلاق ، فهو شديد التعقيد وشديد التعارض ، إذ لا يمكن تعريفه بسهوله ، فهو منفلت من أسر التحديات حيث يتعذر رصد خاصيته ولذلك في كل المحاولات

التي تسعى لتقييد مفهوم التسامح ، تسقط في العمومية والتشويش إنه مفهوم مراوغ أو متملص كما يقول عنوان أحد الكتب المهمة عن التسامح . (١٥)

ويتجسد غموض هذا المفهوم من ناحيتين :

الناحية الأولى : في تعدد معانيه واختلافها لدرجة قد تدفع إلى التساؤل ، عما إذا كنا أمام مفهومات متعددة ومختلفة عن التسامح ، أم أمام مفهوم واحد له صيغ فرعية متعددة ومختلفة .

الناحية الثانية : فيما يتضمنه من مفارقات وتناقضات ، تجعله لأول وهلة على الأقل عصياً على الفهم ، فالتسامح يقتضي أن نساوي في المعاملة بين طرفين غير متساويين ، ولا ينبغي – من منظور ما – أن يكونا متساويين بين ما نستحسنه ، أو نستسيغه ، وما نستهجنه ، أو ننفر منه ، بين ما نراه حقاً ، وما نراه باطلاً ، بين ما نراه خيراً ، وما نراه شراً ، وينبغي للتحليل المفهومي أن يأخذ في الحسبان المفارقات والتناقضات كلها التي تبدو ملازمة لمفهوم التسامح . (١٦) الأمر الذي حدا ب (أنا اليزابيتا غاليوتي) صاحبة الكتاب المعروف (التسامح بوصفه اعترافاً) بالتمييز بين ثلاثة تصورات من التسامح . (١٧)

إن تحديد المفهوم ، أو التعريف العام للتسامح والتصورات ، أو الأنواع التي ترتبط بها ، ما هو إلا خطوة أولى لا غنى عنها ؛ لمناقشة البعد المعياري الأخلاقي للتسامح ، فهذه الخطوة تساعدنا على تحديد الجانب الوصفي الأولي لهذا المفهوم ، لكن مفهوم التسامح ليس مفهوماً وصفيا فقط ، بل هو مفهوم معياري أخلاقي – أيضاً – فهو لا يقتصر على أحكام الوجود ، بل يتضمن أحكام وجوب – أيضاً – أي أنه لا يقتصر على وصف ما هو كائن ، بل يتعداه إلى الحديث عما يجب أن يكون ، وتجاور البعدين الوصفي والمعياري ، أو تداخلهما في مفهوم التسامح ، يجعله مفهوماً معيارياً كثيفاً بامتياز ، بمعنى أنه ليس مفهوماً وصفياً فقط ، ولا مفهوماً معياريا فقط ، بل مفهوم وصفي ومعياري في الوقت نفسه . (١٨) وتكمن إشكالية التسامح إذن في أن هذا المفهوم كان غائباً في مجمل النتاج الفلسفي اليوناني ، فضلاً عن الفلسفة الإسلامية ، والدليل أن تاريخ الفلسفة شهد مذاهب كثيرة ومتنوعة في الأخلاق ، وهناك من الفلاسفة من ركزوا جهدهم الفلسفي ، أو قصروه حصراً على ميدان الأخلاق ، ومع ذلك فنحن لا نجد في قاموس مصطلحاتهم لفظ التسامح إلا نادراً ، وبصورة عرضية في الغالب ، إن سجل القيم الأخلاقية التي حللها الفلاسفة ، والتي تتسلسل من الخير والحق والواجب والفضيلة والعدالة .... الخ إلى الرحمة والشفقة والإحسان والإيثار .... الخ نادراً ما نعثر فيه على لفظ التسامح كقيمة أخلاقية فلسفية ، وإذا غاب المفهوم فمن الطبيعي أن تغيب الفلسفة التي تؤسس نفسها عليه . (١٩)

إن المفردة لم تدخل الفلسفة من باب الفلسفة نفسها ، بل من باب الفكر الذي يعبر عن الصراع الاجتماعي ، فبقى هذا المفهوم موضوع تشكيك واعتراض ، ولم يُقبل في رحاب الفلسفة إلا بامتعاض ، بمعنى آخر لا يوجد عند اليونان كلمة مرادفة للتسامح ، إذ أن هناك الكثير من الوقائع – فقط – تشير في مجملها إلى حقيقة التسامح ، هذا الأمر الذي تناولته العديد من الدراسات منها على سبيل المثال : البير شيغيل في مؤلفه (تاريخ فكرة التسامح من العصر القديم إلى العصر الوسيط) حيث عرض لمظاهر وتصورات ووقائع متعلقة بالتسامح ونقيضة التعصب ، من العصور القديمة الإغريقية والرومانية إلى بداية العصور الحديثة ، حيث مضى في رصد تاريخي كرونولوجي لسيرورة التفكير في التسامح مع المختلف ،

والمخالف فكراً ، أو سلوكاً ، ولم يختصر في دراسته على الفكرة النظرية ، بل رصد مدى ممارستها في واقع المجتمعات الأوروبية على مدى التاريخ . (٢٠)

ومن الدلائل والواقع اليونانية لمفهوم التسامح غير الصريح في أفكارهم نجد أن أفلاطون (٣٤٧ ق.م) لم يتسامح مع السوفطائيين ؛ لأنهم لم يتسامحوا مع أستاذه سقراط (٣٩٩ ق.م) ، ولا أفلاطون وتلميذه أرسطو (٣٢٢ق.م) تسامحها مع الأمم الأخرى ؛ لوقوعها خارج حدود الإقليم اليوناني ، فضلاً إلى أن هذان الفيلسوفان قد وصفوا الأمم الأخرى من : كنعانيين ، ومصريين ، وشرقيين بأوصاف لا تليق بهم من خلال انطلاقهم من نزعة عنصرية ضيقة ، تزعم أن التفلسف خاصية اليونان وهي نتاج عبقري متميز لهم فليس العلم إلا التفكير عن طريق اليونان . (٢١) هذه النظرة الصادرة عن نزعة عرقية ضيقة ، تميل إلى التمحور حول الذات ، بل إن شئت فقل التعصب والانحياز الأعمى والانغلاق .

إن هذه الدعوة صار على نهجها بعض المفكرين والباحثين داعين إلى أن التفلسف خاصية اليونان وحدهم ، ونتاج عبقريتهم المتميزة ، على سبيل المثال : الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا حيث يقول " إن اليونان هم أساتذة العالم القديم والأوسط والحديث ، كيف لا ؟! وهم رواد النزعة العقلية في العالم وطلائعها ، وهم جنود الفكر الخالص الذين آمنوا بالعقل كأول من آمن وتعلقوا بالمعرفة لذات المعرفة ، لا لتحقيق مغنم أو دفع مغرم ، فطلب المعرفة لذات المعرفة ، أي للمتعة العقلية التي تنتج عنها بدعة جديدة ابتدعها الأغارقة ، وكانت ميزتهم الأولى التي فاخروا بها أمماً سبقتهم ، أو عاصرتهم ، والتي كانت نبراساً لأمم أعقبتهم ، فالفلسفة أصلها يوناني ، وروحها يوناني ، وعبقريتها يونانية ، وما من فكر اشرأب ، أو فيلسوف قام ، أو رجل أوتي الحكمة وانثالت عليه المعاني ، إلا وبدأ باليونان ، وبنى فلسفتة على أساس من فلسفة اليونان وأبرز أفكاره وآرائه من خلال أفكار اليونان ، وآراء اليونان ، فأعظم باليونان أساتذة للفكر والحضارة ، وأكرم بهم رسلاً : للحق ، والخير ، والجمال . (٢٢)

في حين وجدنا أن بعض الفلاسفة الغربيين على خلاف الفلاسفة اليونان ، بل حتى الفلاسفة المسلمين ، إذ كتبوا نتاجات فكرية ونصوص فلسفية متخصصة بهذا العنوان العريض (التسامح) وهذا لم يكن من بناه أفكارهم ، بل هو وليد حركة الإصلاح الديني في أوروبا ، بمعنى أنه جاء كرد فعل وانعكاس ، لما ساد في غياب للتسامح ، داخل النظم الدينية ، ولا سيما الكنيسة اتجاه المخالفين لها من داخل الدين المسيحي نفسه ، فضلاً عن الملل الأخرى ولهذا ولدت كتاباتهم بعد أن أصبح لها حضوراً في مجمل إنتاجهم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر جون لوك (١٧٠٤م) في كتابه (رسالة في التسامح) (٢٣) يدافع عن ضرورة الفصل بين الدولة والكنيسة فالدولة مهمتها الحفاظ على حقوق الأفراد ، ولا علاقة لها مطلقاً بخلاص نفوس الناس ، والكنيسة هي مجرد جمعية حرة ليس لها أن تتدخل في الأديان . حيث ذكر لوك أن الدولة عليها أن تحفظ المصالح المدنية ، من قبيل الحياة والحرية ، وبالمثل تصون امتلاك الأشياء من قبيل المال والمنازل (٢٤) فسلطة الدولة لا تتجاوز هذه النوعية من الأمور ، أما أن تنسحب على أمور تتعلق بالمعتقد الديني فهذا ليس من اختصاصها ..... ولا يمكن استغلال سلطة الدولة في الترويج لمسألة خلاص الأنفس . (٢٥) إن جون لوك صيحة مستنيرة وكونية للديانة المسيحية . (٢٦)

كذلك فولتير (١٧٧٨م) في رسالته (في التسامح) طرح فيها قضايا مرتبطة بالتسامح الديني ، التعصب وكذا الإصلاح بأسلوب مزج فيه بين الأدب والفلسفة يقول : " إن هذا العقل الوديع إنساني ، يحث

على الحِلم ، يخنق الفتنة في المهد ، يشد من أزر الفضيلة ... ثم ألا يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا كم بات التعصب والاندفاع موضع سخرية لدى شرفاء الناس . " (٢٧) فبرأيه أن القانون الطبيعي الوحيد الذي يجب أن يفرض منطقه هو : " لا تفعل ما لا ترغب أن يُفعل بك ... إن الحق في التعصب حق عبثي وهمجي إذا؛ إنه حق النمور وإن فاقه بشاعة فالنمور لا تمزق بأنيابها إلا لتأكل ، أما نحن فقد أفنينا بعضنا بعضاً من أجل مقاطع وردت في هذا النص أو ذاك . " (٢٨) أيُعقل أن ينصاع الإنسان لهمجية تحركه ويُلغي عقله وإنسانيته ، وأن يجعل من الآخر شيطاناً بمجرد أنه لا ينتمي لطائفته . فضلاً عن كارل بوبر (١٩٩٤م) وجوته وهابرماس....الخ وغيرهم كثر ، إذ كانت كتاباتهم عن هذا المفهوم نتيجة الحروب التي وقعت في القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر ، بين الكاثوليك وخصومهم في الدين البروتستانت ، لذلك نادى أولئك بحرية الاعتقاد ، وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والإنسان . (٢٩) والتي انتهت بتسامح بعضهم مع البعض الآخر ، هذا من جانب ، ومن آخر فقد شهدت هذه الفلسفة مذاهب متنوعة في الأخلاق ، وهناك من الفلاسفة من ركزوا جهودهم الفلسفي ، أو قصروه حصراً على ميدان الأخلاق ، انطلاقاً من الخير والحق والواجب والفضيلة والعدالة ، أما كون التسامح قيمة أخلاقية فإنه نادراً ما نعثر عليه في مؤلفاتهم ومرجعياتهم . (٣٠)

ومع ذلك فقد برهن تطور الأمور ، أن المنادين بالتسامح وحتى الذين أعلنوا تمسكهم به بقوة ، لم يكونوا مستعدين – دائماً – للسير بهذا المبدأ ، إلى أبعد مما يتحمله المذهب الذي يدينون به وتقتضيه مصلحة الدولة ، التي ينتمون إليها ، ويرضون عنها ، ولذلك نجد دعاة التسامح من البروتستانت أنفسهم شأنهم شأن الكثير من فلاسفة التنوير ، في كل من فرنسا وانجلترا وغيرها ، يضعون حدودا لحرية الاعتقاد خصوصاً إذا كان المذهب الذي يعتقده الخصم مخالفاً لمذهب الدولة القومية ، التي ينتمون إليها ، ويعملون على خدمتها وتقويتها ، وبعبارة أخرى إذا كان تابعاً لمؤسسة أجنبية والمقصود هنا الكنيسة الكاثوليكية ومقرها روما ، ومن هنا أخذ التشريع للتسامح يخضع للمصلحة القومية في وقت كانت فيه النزعة القومية في أوروبا الحديثة في عنفوانها ، ولذلك اعتبرت أن الكاثوليك في هذه الحالة ، غير جديرين بالتسامح ؛ لأنهم يدينون بالولاء إلى سيد أجنبي ، والمقصود البابا في روما . (٣١)

لقد تم هذا التحول في مضامين مفهوم التسامح في أواخر القرن الثامن عشر ، وتحديداً في القرن التاسع عشر ، وذلك مع بروز ملامح الحداثة الأوروبية ومظاهرها الحضارية ، وتحت تأثير منظومة من العوامل الثقافية ، والسياسية ، ولا سيما ظهور دولة القانون والمجتمع المدني والعلمانية ، ومن ثم نمو وتطور الفلسفات النقدية ولا سيما فلسفه الأنوار التي بدأت مع القرن الثامن العاشر ، بما حملته معها من قيم ومفاهيم وأفكار جديدة حول العقل والحرية والمساواة ، والحقوق الطبيعية وحقوق الإنسان . (٣٢)

أما في فكرنا العربي الإسلامي فهو الآخر لم نجد فيه – أيضاً – إشارة واضحة لهذا المفهوم (التسامح) بشكل صريح (٣٣) بل وجدنا مفردات كثيرة مثل العفو والمودة والتذكير ..... الخ وخير دليل على ذلك القرآن الكريم الرافض للعنف والتعصب ، كقوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ (٣٤) فهذه الخطوة تحدى بها الخطاب القرآني النسق الثقافي السائد سواء كان متمثلاً في الوثنية ، أم في النصرانية ، أم في اليهودية ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ

وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ (٣٥) وفي موضع آخر ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (٣٦) والكلمة السواء ، هي الحوار بالحق وأن يبدي كل طرف ما يراه صالحاً ومناسباً ، وأن تكون السماحة هي من منهاج المتحاورين ومبدأهم في التحاور ، بحيث يكون الأمر بين الجميع التباين والتعارف والتواد ، وليس الاختلاف والتعادي والتجافي وأن تؤدي كل الطرق إلى الإيمان واتباع الحق .

إن الآيات القرآنية الكريمة الواردة في هذا الخصوص عديدة ، منها – على سبيل المثال لا الحصر – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (٣٧) وقوله تعالي : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ (٣٨ وقوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (٣٩) فالمؤمنون يغفرون للمشركين والكافرين ، الذين لا يرجون أيام الله ، ويقول : ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (٤٠) وأيضاً قوله تعالي : ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (٤١) فهذه معاني قرآنية محكمة من قطعيات تدل على أن التسامح لغة إسلامية أصيلة ، ومعنى أخلاقي شرعه الإسلام ، وحث عليه قبل أن تولد فلسفة التسامح في الفكر الغربي الحديث والمعاصر . (٤٢) فمن هذه النصوص القرآنية نجد أن القرآن الكريم عالج قضية التسامح معالجة متأنية وعميقة إذ تقودنا هذه النصوص بعد تحليلها وتفسيرها إلى حقيقة مفادها ، أن التسامح والأمانة والشجاعة والتعامل بالحسن مع الناس والرأفة والرحمة هي النهج الإسلامي الصحيح ضد اللاتسامح ، والخيانة ، والجبن ، والتعامل السيئ مع الناس ، والقسوة ورفض الآخر ، لذلك فإن الأسلوب الإسلامي الحقيقي ، والذي يهتدي بالآية الكريمة ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (٤٣) وإن كان هناك من يرى أن التسامح – أيضاً – لا علاقة له بالإسلام ، وما يقدم على أنه تسامح في الشريعة الإسلامية ، إنما هو توظيف وتجيير للنصوص الدينية ؛ من أجل الاستتار على العنف المتأصل في الإسلام ، أما النصوص العامة للدين الإسلامي وتاريخه ، لا تساعد على التسامح يقول محمد اركون : " وإذا ما نظرنا إلى الناحية الإسلامية فماذا نلاحظ ؟! نلاحظ أن المسلمين يختارون بعناية بعض الآيات القرآنية المناسبة ، لكي يبرهنوا على تسامح الإسلام ، ولكي يردوا على الإتهامات الغربية المصوغة انطلاقًا من عقل الأنوار ، وهذه الممارسة لا تقل مغالطة تاريخية وتلاعباً بالحقيقة . (٤٤)

نستنتج من ذلك أن هذا المفهوم (التسامح) في القرآن الكريم ذهبت إلى ما يفيد معناه – فقط – فقد جاء بما يقارب ، أو يدل على معناه حين تمت الدعوة للتقوى والتشاور والتآزر والتواصل والتراحم والتعارف كلها ..... وغيرها من صفات التسامح مؤكدة حق الاختلاف بين البشر . فمعظم الدارسين والباحثين لتاريخية هذا المفهوم (التسامح) يؤكدون أن هذا المفهوم قد عبر إلى الفلسفة العربية الإسلامية من منتج معرفي آخر ، جاء بهذا اللفظ قولاً وفكراً وممارسةً ؛ ليجد فيما بعد حضوره في النص الفلسفي ، بعد أن بلغ مداه في ذلك الحقل الذي أنتجه الحقل الديني التشريعي ، إذ أن بعض الباحثين ذهب على خلاف ذلك من

خلال العودة بفكرة التسامح إلى الفلسفة العربية الإسلامية ، بدءا من الكندي (٨٦٦م) مروراً بعلماء الكلام واللاهوت الذين اعتمدوا المناظرة والجدل وصولا إلى ابن رشد (١١٩٨م) في كتابه فصل المقال . (٤٥)

أما في عالمنا المعاصر فقد ظهر فيه صراع أخذ يطفوا على السطح الآن بين تيارين هما الحداثة والعولمة من خلال ارتفاع الأصوات هنا وهناك ؛ لتعلق نهاية الايدولوجيا ، ونهاية التاريخ ، وما ينشر من آراء ونظريات تكرس ما أصبح به اليوم بالفكر الأحادي الحامل لواء هذه العولمة على الصعيد الاقتصادي والهادف إلى فرض هيمنة فكرية أيديولوجية على العالم كله ، فضلاً عن التبشير بما يسمى صراع الحضارات فهي دعوة ترمي إلى تعبئة الغرب كحضارة ، ومصالح ضد حضارات دول أخرى ، وفي مقدمتها – على سبيل المثال لا الحصر – الحضارة العربية الإسلامية هذا من جهة والتيارات الإسلامية من جهة أخرى ، من خلال التشدد على طرف وعدم الاعتراف به ، وقمع أفكاره وتغييبه (٤٦) عن طريق ممارسة سلوكيات تميل إلى التطرف والتمحور حول الذات والانغلاق ، وهذا يعني إلى بروز مفهوم معاكس لمفهومنا موضوع البحث ، ألا وهو أن اللاتسامح واللاعقلانية والتشدد والتعصب ، هذا بدوره قائم على العنف والتطرف في الخطاب السياسي والديني وغيره وفي أشكال السلوك الفردي في التعامل الحياتي اليومي بحيث أوقعها في أخطاء كثيرة راح ضحيتها الكثير من المفكرين والمثقفين ناهيك عن الأبرياء من الناس ، فمن بين هذه الأسباب هو الافتقار إلى المنهج الصالح السليم لفهم القرآن الكريم نفسه ، من هنا علينا أن ندعم ونعزز ونؤصل روح التسامح بين أفراد المجتمع ، بالرجوع إلى القرآن الكريم ، وأحاديث رسولنا الشريف محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر يستدعي استعادة المثقفين مكانتهم في الحياة الاجتماعية وترسيخ ثقافة الحوار ، من خلال وحدتنا وإخوتنا وتعاوننا فيما بيننا ؛ حتى نقضي على مرض التطرف المدمر والتذمت ولا سيما في الأفكار والآراء ، والقيم والمعتقدات الدينية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعرقية على الرغم من عدم الاتفاق معهم عقائدياً وفكرياً وقيمياً. (٤٧) فالحق في الاختلاف يحيل إلى معنى آخر للتسامح ، وهو التحمل والذي يعني قبول الآخر على علته ، وعدم الغلو في الدين الواحد ، فضلاً عن احترام الأقليات الدينية في ممارسة عقائدها وشعائرها الدينية من دون تضييق ، أو ضغط . فالحاجة إلى التسامح تفرض نفسها بحكم تعدد الممارسات الدينية داخل الدين الواحد وتعدد الأديان داخل المجتمع الواحد ، فهذا التعدد هو ظاهرة إنسانيه حضارية لا يمكن تجوزها . (٤٨) ومن هنا نتساءل إلى أي مدى يمكن توظيف التسامح في مواجهة اللاتسامح من خلال الخطاب الإنساني ؟؟ إن قضايا الفكر الفلسفي الخطيرة الآن في عصرنا تتمحور حول قضايا أربع :

١- التطرف والغلو في الدين ، أو باسمه ، أو ضده .

٢- التطهير العرقي الذي يمارس جهاراً في جهات ، وتحت هذا الغطاء أو ذاك من جهات أخرى .

٣- الفكر الأحادي الذي يريد فرض واقع اقتصادي فكري أيدولوجي على العالم كله .

٤- ما يسمى بصراع الحضارات ، وهي نظرية تستهدف تطويق أمماً وشعوباً عينها . والسؤال الذي يفرض نفسه الآن ليس هل يتسع مفهوم التسامح لكل المعاني الضرورية لمعالجة هذه القضايا ومواجهة أخطارها ؟!! إن الجواب سيكون بالنفي ، إذا نحن تركنا هذا المفهوم كما هو عليه ، أما إذا أردنا إعطائه معنى عاماً شمولياً يرتفع به إلى مستوى المفاهيم الفلسفية ، المستوى الذي يجعله قادراً على أداء الوظيفة التي تطلب منه اليوم ، وظيفة إحراج التطرف مهما كان نوعه ، وفتح وسائل الهيمنة وأساليب إخفاء صراع المصالح، فإن

ذلك قد لا يأتي إلا من خلال الخطاب الإنساني مع الآخر المختلف ، ولذلك كانت إشكالية التسامح ذات أثر واضح في تأسيس الخطاب الإنساني . (٤٩)

وتعقيباً علي إشكالية التسامح الفلسفي بين غياب المفهوم وحضور المعني نقول إن أي نقاش لإشكالية التسامح ، أو أي معالجة خارج المكون المفاهيمي والنموذج المعرفي المحدد له لن تجدي نفعاً ، فالتسامح هذا المفهوم اللفظي المتداول ببراءة ، حملته كل اللغات الإنسانية بقدر يفوق أو يقل بعضها عن بعض . بل ربما إن فتشنا في قواميس الثقافات خارج المجال الأوروبي ، لوجدنا للتسامح حضوراً في لغاتها هو من الغنى ، بحيث تبدو الثقافة الغربية أمامه في حكم اللغة الفقيرة . فالتسامح إذن ليس تعبيراً لفظيًّا ، بل إنه مفهوم أيديولوجي مركب أيما تركيب ، يستند إلى اللغة الفلسفية قبل كل شيء ، وإلى المرجعية التاريخية التي على أنقاضها قامت الدولة الحديثة في مقاصدها القائمة على العيش المشترك والتسامح الديني . ومثل هذا المفهوم هو الذي تحدَّث عنه فولتير بكثير من الحماسة ؛ مفهوماً أيديولوجيًّا يرسم آفاق مجتمع أنهكته الحروب الطائفية بين المذاهب المسيحية الكبرى وبين الأديان الأخرى . إن إشكالية التسامح ، تحمل وراءها كل هذا التاريخ الصراعي المرعب ، وتختزل كل تلك الصورة التاريخية لملاحم الفتك والتدمير الذاتي التي مارستها أوروبا قبل أن تشرع بعد قرون من ذلك في التعدي بها إلى الخارج في شكل غزوات وحشية ومدمرة لدول ومجتمعات .

ثالثاً : تأسيس الخطاب التسامحي الإنساني في الإسلام بوازع العقل .

أرسي الإسلام دعائم السلام في الأرض ، أمر بالعدل ، ونهى عن الظلم ودعي إلي التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً ، في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس ، بصرف النظر عن : أجناسهم ، وألوانهم ، ومعتقداتهم . فالجميع ينحدرون من نفس واحدة . " (٥٠) يقول الحق جل جلاله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (٥١) " ويرى أن الاختلاف بين الناس في : أجناسهم ، ولغاتهم ، وعقائدهم ، لا ينبغي أن يكون منطلَقا أو مبرِّراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب ، بل الأَحْرَى به أن يكون دافعاً إلي : التعارف ، والتعاون ، والتآلف ؛ من أجل تحقيق ما يَصْبون إليه من تبادُل للمنافع ، وتعاوُن على تحصيل المعاش ، وإثراء للحياة . كما في قوله تعالي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (٥٢) لقد كان العرب قبل الإسلام شتاتاً متناثراً ، لا يأتلف ولا يتجمع ، رغم وجود كل عوامل التجمُّع من وحدة : الأرض ، والبيئة ، والعادات ، والتقاليد ، واللغة ، والمعتقدات ، والثقافة ، والتاريخ ... ومن هناك التقطهم الإسلام ، بعقيدته الصحيحة ، ومفاهيمه الواضحة ، فكانت هذه المفاهيم وتلك العقيدة ، هي العقيدة التي صنعت من أفراد الجاهلية الأولي ، الذين يحبون الفوضى ، ويكرهون النظام ، وتلتهب حماستهم ، ثم لا تلبث أن تنطفئ ، ... صنعت منهم " خير أمة أُخْرِجَتْ للناس " تحت مظلة التسامح ومعاملة الأخر المختلف بالتي هي أحسن .

" لم يكن ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، ونزول الوحي ، أمراً مفاجئاً مقطوع الصلة بحياة العرب في الجاهلية ، وبمعتقداتهم وأفكارهم ، بل كانت هناك مقدمات مهَّدَت لظهور الدين الجديد ، وهيأت النفوس لاستقباله ، فقد كان العرب قد انتهَوْا إلي حال شديد من الفساد والضلال ، الأمر الذي دفع بفريق منهم إلي محاولة الهروب من هذا المجتمع المتوغل في الشر ، والبحث عن معتقَد أو دِينٍ آخر من الأديان

التي كانت منتشرة بين العرب ، بالإضافة إلي عبادة الأوثان . " (٥٣) كانت هذه التيارات المختلفة التي تجمَّعت وتلبَّدت سُحُبُها قُبَيْل ظهور الإسلام ، تشكِّل تمهيداً كان لابد منه ؛ لكي تَدرُجَ رسالة الدين الجديد علي أرض مُمَهَّدَة ، تستجيب للدعوة ، وتمضي بتعاليمها علي نحو يتفق مع سنن التطور المترابط الحلقات .بإرساء دعائم التسامح والمحبة " ولو لم تكن رُوح الإسلام متجاوبة مع رُوح العرب ، ولو لم تكن شريعته متقاربة مع عقلية العرب ، ولو لم تكن طبيعته متجانسة مع طبيعة العرب ، لَمَا صادف قَبولاً ، ولكان مصيره كمصير ما سبقه من سائر المذاهب والديانات . " (٥٤) فكان تأسيس الخطاب التسامحي الإنساني في الإسلام عن طريق الحوار العقلي علي النحو التالي :

١- عرض القرآن الكريم – بكل أمانة ودِقة – آراء المخالفين ، ثم يُتبِعها بالرد الحاسم القائم علي المنطق السليم ، وقوانين الفطرة السليمة . فقد ذكر وجهات نظر الدهريين ، والوثنيين ، والماديين والمنافقين ، وعقَّب عليها تعقيباً مقنِعاً ، مستخدماً في ذلك أنصع البراهين ، وأقوي الأدلة . فالدهريين – مثلاً – حين يُنكرون البعث بعد الموت ويقولون :﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (٥٥) يُعقِّب القرآن الكريم علي ذلك بقول الله سبحانه وتعالي : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (٥٦) وهو بذلك يفرِّق بين الظن والعلم ، موجهاً النظر إلي ضرورة فحص الأحكام ، والتأكد من مصادرها ، مع ما فيه من الدعوة إلي النقد الموضوعي . (٥٧) دون تعصب أو تحيز وإنما خطاب تسامحي إنساني يحرص علي الآخر المختلف ويحافظ عليه .

٢- عرض القرآن الكريم قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – مع قومه ، والنقاش العقلي التسامحي الذي دار بينه وبينهم حول الألوهية ، وما اشتمل عليه هذا النقاش من أدلة عقلية ، في صورة متدرُّجة ، وفي تسلسل منطقي رائع ، تَحمِل العقل علي محاكاتها ؛ للوصول إلي اليقين الذي تشير إليه الآية الكريمة في بداية القصة : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (٥٨)

٣- اعتمد منهج القرآن الكريم علي أن الأقوال أو الادعاءات لا تُقبَل إلاّ ببرهان . وهذا يبدو في قوله تعالي :﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (٥٩) ومنها : تمحيص الأفكار ، ورفْض ما يقوم منها علي الظن ، لا علي اليقين ، وهذا يتضح من قول الله – تعالي – للمشركين الذين ادعَوْا أن شِركَهم كان بمشيئة الله وقضائه :﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (٦٠) لأن عقل الإنسان في مراحله الأولي ، كان عاجزاً أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخير ، وأن يحدد مكارم الأخلاق ومساوئها ، وكان الوحي السماوي يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل عليهم السلام . وعندما تكامَل العقل الإنساني ، وبلغ حداً يستطيع أن يعرف الحق والخير . (٦١) أنزل الحق – سبحانه وتعالي – آخر كتبه ، علي آخر رسله .

٤- حمل القرآن الكريم علي المقلدين الذين يُعطِّلون عقولهم ولا يستعملونها . فقال جل جلاله :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (٦٢) فهؤلاء يصفهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (٦٣) ومن هذا المُنطلَق يَعتبِر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا . (٦٤) كما في قول الحق – سبحانه وتعالي – مصوراً حال أهل النار :﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (٦٥) " ولم يقتصر القرآن الكريم علي دعوته بضرورة إيقاظ قوانا العقلية ، بل إنه عني كذلك بإيقاظ مشاعرنا النبيلة ، بشرط أن تعمل هذه المشاعر تحت رقابة العقل ، وهو يدعونا لأن نزن الأمور بميزانها الصحيح ، قبل الحكم عليها . " (٦٦) " ولا يَكتفي بالمعرفة العقلية ، حتى ولو بلغت درجة اليقين ، ما لم يَرْكَن لها القلب ، ويطمئن لها الوجدان ، ويتجاوب صداها في أعماق الضمير . " (٦٧)

٥- إن منهج القرآن الكريم لم يتخذ من المعجزات وسيلة للإقناع . " ولعل ذلك يفسر رفْض الاستجابة إلي القوم الذين طالبوا الرسول ﷺ بالإتيان بمعجزة خارقة ؛ حتى يستجيبوا لدعوته ويَتَّضح ذلك في قوله تعالي : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٦٨) ذلك أن العقل يعجز عن فَهم أو تحليل المعجزة والإسلام يريد له أن ينطلق باحثاً في جنبات الكون ، مستنبطاً المعارف الإيمانية ، مؤكداً علي قيام العقيدة علي أصول وقواعد عن قناعة وفهم ، يحققان يقين الإيمان ، وصدق الاعتقاد " (٦٩)

هذا هو المنهج القرآني في تأسيس الخطاب التسامحي الإنساني في توجيه العقل الإنساني . منهج عند تطبيقه علي الإنسان والمجتمع ، يظهر دوماً أنه أفضل المناهج ، وأنه عملي يتفوق علي جميع المناهج البشرية ، والنظم الإنسانية الأخلاقية ، ومن ثم فهو منهج من نوع فريد ، يشهد الواقع علي صدقه الدائم . (٧٠) يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (٧١) " ومن منطلق حرَص الإسلام علي ممارسة العقل لوظائفه التي أرادها الله له ، كان حِرْصُه شديداً علي إزالة كافة العوائق التي تَعُوقه عن ممارسة نشاطه ؛ ليشق طريقه للفَهم الصحيح والتفكير السليم . (٧٢)

لقد فتح القرآن الكريم باب التسامح على مصراعيه ، وفتح باب الحوار مع العقائد الأخرى ، وجاءت مادة التسامح غنية بألفاظ عديدة في القرآن الكريم ، ومنها الصفح ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (٧٣) جاء التسامح بلفظ الإحسان في قوله تعالي : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (٧٤) وجاءت بلفظ العفو في قوله تعالي : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ (٧٥) ومن ثم فإن الخطاب القرآني يسعى من خلال تعاليمه ومبادئه ، إلى تربية المسلم على التسامح ، إزاء جميع الأديان والثقافات ، والتسامح في ميزان القرآن الكريم ليس مجرد شعار يرفع ، أو نظرية مجردة عن الواقع ، بل هو منهج يطبق أساسه وقوامه العدل ، ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية عن الرؤية الفلسفية للكون والوجود المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف ، كقانون تكويني أزلي أبدي ، الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريدة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً في عوالم المخلوقات ، والفلسفات ، والشرائع ، والديانات ، والثقافات ، والقوميات والحضارات . (٧٦)

رابعاً : تجليات الخطاب التسامحي الإنساني من خلال قيم بنود وثيقة المدينة .

تشكل السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني للتشريع في الإسلام ، لذا فإن تحديد تجليات الخطاب التسامحي الإنساني وفقاً للسنة النبوية الشريفة سيكون أمراً ضرورياً ومكملاً لبناء الأساس النظري للتسامح في الإسلام ، ولأجل أن لا تدخل الدراسة باب الاتساع المخل ، رأينا إبراز قيم التسامح في السنة النبوية الشريفة من خلال التركيز على وثيقة المدينة المنورة كنموذج تحتاج ظروف الواقع الإسلامي الحاضر استحضاره لتعزيز لتجاوز الفتن والاضطرابات ، فالوثيقة تمثل أول نص مكتوب بعد القرآن الكريم في التاريخ الإسلامي ، أراد له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون إطاراً تنظيمياً للكيان السياسي الإسلامي الناشئ آنذاك بعد هجرته المباركة إلى المدينة المنورة . ومن قيم التسامح في هذه الوثيقة ما يلي :

القيمة الأولي : الإخاء والمسامحة .

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس أصحابه ، وفي قلوب الأمة الإسلامية ، ما ورد في الوثيقة من جعل المسلمين جميعاً مهاجرين وأنصار ، ومن تبعهم ممن لحق بهم ، وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . (٧٧) وبناء على ذلك نصت الوثيقة في بنودها رقم خمسة وعشرون إلى رقم خمسة وثلاثون على أن يهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني أوس ، ويهود بني ثعلبة ، مع المؤمنين أمة واحدة ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والتوجيه والإرشاد دون الإثم ، وأن عليهم اللجوء إلى الصلح ، إذا دعوا إليه ؛ ليقر بذلك مبدأ التسامح بين جميع الأطراف المتعاقدة ، وترك للإنسان حريته في اختيار فكرته . (٧٨) إن الإسلام لا يعترف بأي رابطة تقوم على العصبية ، أو العنصرية القومية ، أو الجنسية إنما الرابطة الوحيدة التي أقرها الإسلام ، وجعل لها منزلة ، وأقام لها وزناً هي رابطة الأخوة الإنسانية . (٧٩) " **هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس** . " (٨٠)

لقد تجلت أبرز مظاهر الإخاء الإنساني ، واحترام حقوق الإنسان فيما ورد من بنود ، داخل وثيقة المدينة منها " **وأن النصر للمظلوم ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين** المؤمنين (٨١) كذلك نظمت الوثيقة حق الأخذ بالثأر على نحو يجنب قيام حرب أهلية ، فإذا اعتدى شخص ما على مؤمن بالقتل ، وجب على أقرباء الجاني أن يسلموا القاتل لولي القتيل ، أي لصاحب الثار لكي يقتص منه بالعدل ، ولا يتم ذلك إلا من خلال ولي الأمر " **وإنه من اعتبط مؤمنا قتلاً عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه** . " (٨٢)

كما تجلت أبرز معاني التسامح مع اليهود الموجودين في المدينة المنورة ، من خلال بنود الوثيقة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة ، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، وجعلتهم جزء من نسيج العالم الإسلامي لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فإقرار مبدأ التسامح والمساواة بين اليهود والمسلمين في المدينة المنورة ، فتح الطريق أمام اليهود الراغبين منهم للدخول في الإسلام ، وكفلت لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق ، فيقول النبي صلى وسلم ، **وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين** . (٨٣) وهكذا أكدت وثيقة المدينة علي التسامح والسماحة في معرفة وفهم مفهوم الأمة ،

وحقوق المواطنة حيث عرفت الوثيقة الأمة تعريفاً لا يستند إلى الأسس والنظم القبلية وما اقترن بها من العصبية والنسب ، وإنما قرر أن الأمة تضم كل من اعتنق الدين الجديد ، دون النظر إلى أصله ، وقبيلته مع مراعاة قبول الآخر ، والتعامل معه بمبدأ العدل والمساواة ، وجاء هذا المبدأ عنصراً مهماً ، جعل الأمة الجديدة أمة مرنة قابلة للاتساع ، وضم شعوب كثيرة في رحابها ، وتجلى هذا المفهوم الجديد للأمة في مقدمة الوثيقة ، حيث قررت **أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس** . (٨٤) **وذلك وفق النص التالي المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم إنهم امة واحدة من دون الناس** . (٨٥)

إننا إذا نظرنا بتمعن لنصوص الوثيقة ، نجد أن الأطر الإنسانية التي تعامل بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعه جماعة المسلمين مع جماعة اليهود في المدينة المنورة ، نجد أن القيم والمثل والمعايير الإنسانية في الإسلام ، تحترم مشاعر الآخرين مهما كانت جنسياتهم وألوانهم وعقائدهم وتعاملهم معاملة راقية ، ترقى برقي الإنسانية ، واحترام آدمية كل البشر ، كما جعلت الوثيقة جميع العناصر البشرية الموجودة من المسلمين في المدينة المنورة والقاطنة فيها قلباً وجسداً واحداً للأمة الإسلامية الجديدة . (٨٦) ومن واقع هذه الوثيقة يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم يرسي قواعد التسامح والإخاء الإنساني بين جماعة المسلمين المهاجرين والأنصار ، وهذا التنظيم الذي أقر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بجماعة المؤمنين في المدينة ، صار بمثابة الينابيع الدافقة ، التي استمد منها العالم الإسلامي ما اتسمت به نظمه ، من أصالة وقدوة وفي نفس الوقت ساعدت على التأقلم مع متطلبات التطور والنمو ، إذ استهدف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من تلك التنظيمات الواردة في بنود الوثيقة ، جعل جماعة المؤمنين نواة طيبة بمجتمع جديد رسالته الجهاد بحق وفهم ووعي وإدراك ، في سبيل نشر الإسلام وإخراج الناس من الظلمات إلى النور . (٨٧)

إن الباحث المتأمل في هذه الوثيقة ومقاصدها العميقة ، سيجد أنها احتوت كل المبادئ التي ترسخ التسامح والتعايش والسلم داخل المجتمع الواحد ، بين كل أفراد المجتمع باختلاف أعراقهم وديانتهم وتوجهاتهم على أساس المواطنة . حتى جاء الحق على لسان بعض المستشرقين أمثال كوتستانسي جيورجيو في شأن هذه الصحيفة وما تتضمنه من حقوق وتسامح في ظل الاختلاف في الدين " حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، ولاسيما اليهود وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم . " (٨٨)

القيمة الثانية : قبول الآخر والتعايش السلمي .

يعد من أهم العوامل التي ساعدت وأسرعت بقبول وثيقة المدينة من قبل جميع الأطراف المتصارعة حين ذاك اعترف كل منهم بغيره من الأطراف الأخرى ككيان وعدم القيام بأي ضغط عليه وقبوله كما هو مع الدعوة إلى التعارف والتواصل واحترام حق الحياة لكل منهم واحترام الأفكار المناوئة في ظل القانون وتحت حمايته والملفت للانتباه أن الوثيقة لم تعتبر اليهود اهل ذمه ولم يعدوا كذلك إلا حين غدروا بالمسلمين ونقضوا عهد الوثيقة وتمالئوا على النبي وصحبه واستقووا عليهم بقبائل الجزيرة العربية في غزوة الأحزاب فحين ذلك أجلاهم الرسول إلى خيبر أي بعد سبع سنوات كاملة من حفظ العهود معهم ومع ذلك لم ينص

القرآن على الجزية إلا في السنة التاسعة من الهجرة . (٨٩) ويقصد بتقبل الآخر في الشريعة الإسلامية ، قدرة الفرد على تقبل معتقدات الآخرين ، وعدم الضيق بالآراء المخالفة لرأيه ، ليس فقط في مجال الأمور اليومية ، بل حتى في أمور الدين والفكر والسياسة ، كما أن تقبل الآخر يقصد به – أيضاً – التسامح والصفح والعفو عن الغير والإحسان إليه قال تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ (٩٠) وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ (٩١) ففي هذا النص القرآني قيمة أخلاقية عالية تحفظ للمخالف في الدين أمنه ، وتحميه من كل سوء وكل ذلك غايته إرساء علاقة بناءة تجاهه . (٩٢)

إن تعزيز التسامح والتعايش يتطلب ابتداء قبول الآخر باختلافه الفكري واللغوي والمذهبي والديني ، وهذا يستدعي الحوار معه ؛ لكسر الاحتكار السياسي ، وذلك يتأتي عبر فضاء الحرية ليتسع لكل الآراء عبر تثبيت قواعد الحرية في المحيط المجتمعي ، مما يتطلب تأسيس علاقات ووقائع لكسر حواجز الأثرة ، ونوازع الأنا الضيقة ، وممارسات الشطب والإلغاء والنفي والتكفير والتشريد ، وتؤسس لحسن الاستماع وقبول الآخر ، واحترام وجوده وفكره وقناعاته ، والحوار ليس من أجل إلغاء الخصم ، أو ثنيه عن أفكاره وقناعاته ، وإنما من أجل الحرية وافقها الإنساني والحضاري . (٩٣) والمشكلة الأساسية لا تكمن في الاختلاف ، ولكن في فهم الاختلاف ، إذ أن التنوع سمة أساسية في المجتمعات الكبيرة ، وهي غالبة في المجتمعات الحديثة ، لذلك فإن القبول بالآخر والأهم من ذلك هو القبول به ؛ لأنه جزء من الأنا ولا بديل عن ذلك سوى التصارع . (٩٤) لذلك فإن رفض الآخر يترتب عليه انتهاك محرماته ، وصولاً إلى استباحته – أحياناً – لمجرد أنه الآخر . (٩٥) والبديل عن ذلك اقترح ميلاد حنا بما يسميه بتنمية ثقافة القبول بالآخر عبر القراءة والمعرفة والثقافة إذ كلما اتسعت المعرفة على أنواعها كافة ، اتجه الإنسان إلى معرفة الآخر ، كذلك السعي لتوسيع دائرة الاهتمامات بالتجمعات الإنسانية على أنواعها ، كالانضمام إلى جمعية أهلية ، أو حزب سياسي ويؤكد بأن الانتماء إلى مهنة أو عمل ، أو ايدولوجية فإنها تجعل المرء أكثر قبولاً للآخر . (٩٦)

إن الاعتراف بالآخر واحترامه يشكل قاعدة مهمة للتعامل الإنساني لكونها تنطلق من دعوة راقيه ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ (٩٧) وكثير من الآيات في الوحي الكريم تمثل مظهر من مظاهر الاعتراف بالآخر ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعترف بالآخر وكاتبه وراسله ، وطلب من أصحابه رضي الله عنهم أن يتعلموا لغته . (٩٨) ويرتبط بالاعتراف بالآخر والتحاور معه أمر بالغ الأهمية ، هو تحقق المعرفة بواقعه وخلفيته الفكرية والتاريخية ؛ لأن واقعه هو الذي يبصر بمشكلاته وخلفيته الفكرية هي التي تدل على كيفيه التعامل معه وتاريخه يبين مدى تمكن هذه الخلفية من سلوكه واستجاباته .

إن الآخر الذي اعترف به الإسلام ، هو المسلم المخالف في الرأي والاجتهاد ، أو غير المسلم المخالف في الدين والاعتقال ، وفي الحالين فقد احترم الإسلام هذا الآخر باعتباره الإنسان الذي خلقه الله وكرمه وأسجد له ملائكته واستخلفه في الأرض وذللها له ، وهذا ينطبق على كل إنسان مهما كان عرقه ، أو ديني ، أو لسانه ومن أوضح مظاهر احترام الآخر وكفاله حقه في الاحتفاظ بهويته ، والدفاع عن شخصيته والتمسك بحضارته ، فرغم تحمل نتيجة الاختيار ومسؤولية القرار ، ولو بالميل إلى الكفر والضلال فإن القرآن

الكريم يحترم إرادة الإنسان قال تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩﴾ (٩٩) وسمي القرآن الكريم الكفر ديناً حتى في السورة التي حملت قرار المفاضلة والتمييز بين الإيمان والكفر قال تعالى : ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ (١٠٠) كما نوه القرآن الكريم بربانية الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل على رسله ، وبأنها كتب هداية للناس لإنقاذهم من الضلال . قال تعالى في وصف التوراة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ (١٠١) وقال تعالى في وصف الإنجيل ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ (١٠٢) أنصف القرآن الكريم الآخر وشهد لمن يمتاز بمكارم الصفات قال تعالى : ﴿* وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ (١٠٣) كما تجدر الإشارة إلى أنه ليس معنى الاعتراف بالآخر واحترامه التسليم بمبادئه ومواقفه . (١٠٤)

أما عن نظرة الإسلام إلى التعايش مع الآخر ، فتظهر من خلال النظرة الإسلامية إلى العالم الذي نعيش فيه في الرؤية الإسلامية العقدية والفكرية ، ترى أن الأصل والقاعدة والتنوع والتميز والاختلاف فالواحدية فقط للذات الإلهية ، وما عدا ذلك يقوم على التعدد والاختلاف ، ذلك هو القانون التكويني الذي يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات في الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وفي الأفكار والفلسفات وفي الشرائع والممل والديانات ، ولقد بدأت الإنسانية أمه جماعة واحدة ثم صارت شعوباً وقبائل ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف قال تعالى : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ (١٠٥) ومع سنة وقانون التعددية في الشعوب والأمم ترى النظرة الإسلامية للعالم أن الأصل هو تنوع الإنسانية في الألسنة واللغات ، ومن ثم في القوميات وكذلك في الأجناس والألوان قال تعالى : ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ (١٠٦) ومع التعدد والتنوع في الشعوب والأمم وفي اللغات والقوميات وفي الأجناس والألوان هناك سنة وقانون التنوع والتمايز في الشرائع والممل الدينية وفي المناهج والثقافات والحضارات ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ (١٠٧) وفي هذه النظرة الإسلامية للوجود بعوالمه المختلفة القائمة على التنوع والتعدد تربية للشخصية المسلمة على التعايش مع الآخر في ذلك العصر الذي يمر بالصراعات والاضطرابات . (١٠٨)

لذلك ينبغي لنجاح متطلب التعايش مع الآخر ضرورة التفاعل الثقافي بين الحضارات فأي حضارة إنسانية لا يمكنها مواصلة تقدمها إلا إذا تعايشت مع غيرها فالحضارة هي التي تربي أبنائها على ثقافة التماسك مقابل الآخر والمجادلة بالحسنى ووسائل الإقناع فلا حضارة مع التعصب للرأي ورفض التعايش مع الآخر . (١٠٩)

القيمة الثالثة : العدل والمساواة .

تضمنت وثيقة المدينة هذه القيمة ، فأنهت بذلك على التفرقة العنصرية والتمييز بين أعضاء المجتمع المدني وعملت على إقامة العدل على جميع المستويات ، بدءاً بالعشيرة إلى القبيلة ، إلي الأمة ثم إلى العالم أجمع ، وبذلك تمكنت من إقامة التعايش السلمي على جميع المستويات ، فقد عدت جميع الأفراد المتعاقدين في المدينة دون تمييز بينهم ، من حيث الشكل والجنس واللون والمعتقد متساوياً في الحقوق والواجبات العامة ، وتكفل لهم كرامتهم وحرياتهم ، ولذلك نجد في بنودها تكرار عبارات يدل مؤداها مع جميع الطوائف على ذلك كما أن كلمة القسط والعدل قد تكررت في مواد الوثيقة أكثر من عشر مرات . (١١٠)

لقد أكدت الوثيقة على مساواة الجميع في الانتساب إلى الأمة ، ففي البند الثاني المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب أمة واحدة من دون الناس كما في البنود من خمسة وعشرون إلي خمسة وثلاثون التي كفلت لليهود الانتساب للأمة ، حيث أصبح المجتمع الجديد لجميع طوائفه أمة واحدة متساوية عناصرها أمام القانون كما ساوت الصحيفة بين الجميع في حرمة السكن حيث أكدت على أن جميع الأطراف المتعاقدة على اختلاف اعراقهم وديانتهم متساوية في العيش داخل حدود الدولة آمنين على أموالهم وأنفسهم من أي اعتداء ففي البند التاسع والثلاثون منها ، أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وهذا نص صريح في تحريم الحروب والقتال بين القبائل والعشائر وتثبيت التعايش السلمي . (١١١)

القيمة الرابعة : التواصل .

تضمن دستور المدينة العديد من القيم الإنسانية بالتعايش السلمي مع الآخر ، منها الاعتراف بالآخر والقبول به وضمان حقوقه وحريته ، كما وضع أسس وآليات لتثبيت هذه الحالة من أهمها هو محاولة إشراكه في صناعة وصياغة وتشييد وبناء منظور الحياة المجتمعية الرشيدة ، مستفيدة مما لديه من إيقاعات الفضيلة والحق والخير والرشاد المتبقية في الأديان والمعتقدات الأخرى . (١١٢) ويذهب عيساوي إلي أبعد من ذلك بقوله : " أن قيمة الاعتراف والانسجام والتقبل للآخر من حيث القيمة الأخلاقية والفاعلية الواقعية من قيمة التواصل معه وإشراكه في عملية التشييد والبناء الراشدة ، وذلك باستثمارها وتوظيفها لما بقى عنده من الفضائل في موروث اعتقاده وهي القيمة والأرضية الأساسية التي تفتقدها معظم الدساتير عامة بما فيهم الدساتير الغربية المعاصر .. " (١١٣) وعليه عُدت وثيقة المدينة التواصل بين الأفراد والوحدات الداخلية في المجتمع من الآليات الأساسية للتعايش السلمي على كل المستويات والتي يمكن توظيفها بدرجاتها المختلفة لدفع العلاقات بين الأفراد ، أو الجماعات داخل المجتمع ، في اتجاه التراضي التلقائي والانسجام النسبي ، وفي الوقت ذاته يعد الآلية الأساسية لضبط الصراع ، أو التناقضات الداخلية بين الأفراد والجماعات حول الأدوار والوضعيات الاجتماعية المختلفة . (١١٤)

القيمة الخامسة : الحوار مع الآخر .

إن الحوار مع الآخر والتعايش معه ، ما هو والاعتراف به خطوات أولية للإقرار بمظلة التسامح ، وتشجيع التنوع في مجال الفكر والممارسة بما يساعد في تعميق الوعي ، خلال الواقع الراهن كالايغال في الماضي ، أو التاريخ وحسب البعض يعلو على الزمن ويتجاوز العصور على نحو يقود إلى الغلو والتطرف والتعصب ويعتبر ما سواه انحرافاً وشذوذاً وخروجاً على ما هو سائد ، وحاكم ومستقر ، أو ساكن إلى درجة تجعل الآخر المختلف ربما المريب يستحق الإدانة والتجريم والتحريم والتأثيم أحياناً . (١١٥) إن التسامح

كمفهوم ما زال غير مقبول لدى أوساط واسعة ، وربما نظرت إليه بعض الاتجاهات الإقصائية والإلغائية ، على أنه نبت شيطاني أو فكر مستورد خصوصا مع خلط المفهوم بالنزعات التغريبية ومطابقتها في استتباع واستخدام للآخر الخارجي الأجنبي المختلف الخصم العدو . (١١٦) فالمسلم يعيش في أسرة كبيرة خلقها الله ليتعايش ويتعارف أفرادها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (١١٧) وعلى كل فرد من أفراد هذه الأسرة الكبيرة ، أن يتحاور مع الآخر فكلما ساد الحوار والتسامح الداخلي كلما أمكن أن يتحقق الحوار والتسامح العالمي ؛ لأنه يقوي النسيج الداخلي في كل بلد وهو السبيل الاسمي والأرقى لضبط الاختلاف المذموم ، وتفعيل قيم التعاون والتآلف وبخلاف ذلك فإن غلق باب الحوار يعنى غياب المشاركة والتعددية والتسامح . (١١٨)

يمكن – إذن – أن يطلق على وثيقة المدينة وثيقة التسامح على اعتبار أنها تضمنت العديد من القيم المؤسسة لها كالحرية والعدل والمساواة وقبول الآخر والتواصل بين الأفراد والجماعات وغيرها . إن الإقرار بهذه القيم الأخلاقية في وثيقة المدينة يمثل علامة مضيئة على البعد الإنساني للإسلام ، واتساع أفق التشريع في هذا الدين لبناء كيان إسلامي يعزز مبدأ التعايش بين أعضائه على اختلاف معتقداتهم الدينية ، ومشاربهم الفكرية ، فيجنبهم الانزلاق إلى شرك العنف والتطرف .

وتعقيباً علي تجليات الخطاب التسامحي الإنساني من خلال قيم بنود وثيقة المدينة نقول إن التسامح إذن سمة من سمات الإسلام الخالدة ، والإسلام واضح كل الوضوح في تعاليمه ومواقفه من النظرة الإنسانية للناس جميعا ، والمجتمعات البشرية السليمة هي ذات السياسات الإنسانية السليمة ، والتي تقوم العلاقات بين مواطنيها أولاً ، وبينها وبين الشعوب الأخرى ثانياً ، على أساس من التسامح والثقة المتبادلة والمودة الصادقة . والتعددية الثقافية والحياة المشتركة مع الآخرين تحتاج من الجميع قبولاً بتعايش فيه تسامح وعدل ومساواة واحترام متبادل من كل طرف للطرف الآخر ، وعندئذ تنجح عملية التعايش والتفاهم بين الأفراد في المجتمع الواحد ، وبين الدول والشعوب المختلفة . (١١٩) ولا أظن أن هناك مجتمعاً بدون اختلاف ، أو معارضة ، أو انقسام في الرأي ، بل استطيع القول أن مجتمعاً بدون اختلاف ، أو تميز ، أو خصوصيات هو مجتمع من صنع الخيال ، ولا وجود له على أرض الواقع ، والتماثل هو ضرب من المحال ، وإن وجد مثل هذا المجتمع ، فهو مجتمع ميت بلا أدنى شك ، فالاختلاف من طبيعة الأشياء ، فلا يوجد حاكم ، أو مصلح ، أو مفكر ، أو رسول إلا ووجد من يخالفه ، اختلاف باختلاف الموقف من الخير والشر ، حتى الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ، عارضه إبليس الذي لم يسجد .

إن الاختلاف والتعارض هو من صلب حياة البشر ، مثلما يختلف الليل والنهار ، والرجل والمرأة ، والحق والباطل ، والظالم والمظلوم ، والخير والشر بل هناك اختلاف في طبيعة الظاهرة نفسها ، والاجتهادات المختلفة بشأن تحقيق هدف واحد ، حيث تختلف الوسائل – أحياناً – وتتنوع إلى حد التعارض والانشقاق . فهوية المجتمع وكيانه ووحدته وتماسكه ، لا تنفي الصراع والاختلاف والتنوع والتعددية ، والاختلاف له أحد عناصر يقظة الوعي وأحد أركان تنشيطه بما يساعد على التطور والتجدد ولا تستقيم هوية الأنا من دون هوية الآخر . (١٢٠) وبهذا المعنى يشكل التسامح فضيلة قيمية وأخلاقية ، ولعل جميع المطالب الكبرى التي تتولى الصدارة تتأسس على قاعدة الحق في الاختلاف ، وهذا الحق يتطلب قدراً من التعددية والتعايش ، وبالتالي فهو يحتاج للتسامح ، وحق الاختلاف هو الشرط المهم للتعددية ، وحقوق الإنسان والتسليم بحق

الاختلاف ينطلق من قبول ، أو اعتماد الحوار ، وهذا يفترض التكافؤ لكي يكون فاعلاً ، والحوار يفترض النقد وربما النقد المزدوج ، أي نقد العقل لتحريره من الميراث التقليدي ، أي نقد الآلية العقلية المنتجة والمكررة لهذا الميراث ، ونقد النظام الاستبدادي انطلاقاً من مفهوم السيادة والشرعية ومصدر السلطة والقانون . (١٢١) فبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، أقام قواعد المجتمع الإسلامية الجديد على قاعدة التعايش السلمي ، والتسامح ، والتعاون بين المسلمين وبقية الطواف الأخرى فدخل المسلمون في ميثاق مع القبائل العربية ، واليهودية المقيمة هناك ، فكانت وثيقة المدينة هي الدستور الذي ينظم العلاقات بين مكونات المجتمع الجديد ، وبين من انضوى تحته من الطوائف ، والتزموا جميعاً بموجبها مسلمين أكانوا ، أم غير مسلمين بالتعاون فيما بينهم ، على إقامة العدل ، والحفاظ على الأمن ، وحماية الدولة الجديدة من أي عدوان خارجي . (١٢٢)

كان أهم ما يميز هذه الوثيقة أنها تعكس السماحة والرأفة والرحمة والإخاء والتسامح لجميع أطرافها ، فبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وإقراره لوثيقة المدينة مع كافة المقيمين بها من المسلمين مهاجرين ، وأنصار واليهود ..... وغيرهم من بعض الوثنيين توطدت الدعائم ، وقواعد التسامح والإخاء الإنساني بين جماعة المسلمين وغيرهم . (١٢٣) وتوسع في إيجاد روابط المؤاخاة الإنسانية بعدما أهدر الإخاء القبلي والإقليمي ، وأقام مقامه الإخاء البشري والإنساني ، وهذا كله جديد في بيئة كانت تقدس الأحساب ، والأنساب وتؤمن بالعصبية . (١٢٤)

إن وثيقة المدينة تعد دستوراً للتسامح حيث تضمنت أبعاداً سياسية واجتماعية وقانونية ودينية ويمكن للفقيه والمشرع الوضعي أن يستلهم الأفكار والمبادئ التي تضمنتها لإنتاج نموذج حضاري علمي يخدم الإنسانية بأكملها . إن وثيقة المدينة بما انطوت عليه من فقرات ضمت في ثناياها الكثير من الأحكام التي تؤسس لعلاقة ايجابية وغير مأزومة مع الآخر ، تشكل انطلاقة جيدة لفكر إسلامي معاصر يحترم التنوع الثقافي ، ويعزز مبدأ التعايش السلمي بين الثقافات المختلفة ، تمهيداً لفسح المجال رحباً لبناء دولة مدنية إسلامية تضاهي وتتفوق على غيرها من تجارب الحكم والإدارة في العالم المعاصر ، وهي جديرة بالتأمل والملاحظة والتحليل لتضمين دلالاتها في النصوص الدستورية الإسلامية المعاصرة .

خامساً : أخلاق التسامح في الإسلام (مثالية الفكر وعوائق التطبيق)

رأينا من خلال هذه الدراسة أن مفهوم التسامح اتسع ليجمع بين مجموعة من المبادئ الأخلاقية والفلسفية والدينية والسياسية في الإسلام ، فالتسامح مبدأ أخلاقي إذ لا يمكن فهمه إلا كنقيض للتعصب ، ومبدأ فلسفي صقلته تجارب التعايش الإنسانية ، ومبدأ ديني لا يمكن فهمه بعيداً عن مفهوم المحبة والإخاء ، ومبدأ سياسي يقبل بالحجة والاختلاف ويعد شرطاً أساسياً لممارسة ديمقراطية حقيقية ، ومبدأ حقوقي شرع على عدم التمييز وتحديد الحقوق والواجبات في إطار المواطنة التي تمثل بعداً آخر للتسامح ، ومن ثم فإن العيش في مجتمع متسامح ، هو العيش في مجتمع يتقبل الرأي الآخر ، والفكر النقدي ، ويقر الاحترام والتعدد والاختلاف ، ويرفض التعصب والعنصرية . (١٢٥) هذه أخلاق التسامح في الإسلام بنظرته المثالية والتي تحققت في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم بوثيقة المدينة .

ولاشك أن التسامح لا يمكن تحقيقه بسهوله ، وتتوقف فاعليته على حجم استجابة الأوساط الاجتماعية والدينية لضروراته ، وهو أمر صعب ، يحتاج إلى تعليم طويل ، يخفِّف الإنسان من : حدَّة غَلْوَائه وتطرُّفه ،

واعتداده بنفسه . ويحتاج عودةً متأنِّية للذات ؛ من أجل نقْدها ، وتمحيص بِنَاها الفكرية والعقَدية ، وتأهيلها لتكون أرضية صالحة لاستنبات أَنساق قيم التسامح الجديدة . هذا وقد أكد الفكر الإسلامي على : التسامح ، والتعايش وقبول الآخر وذلك لأن الأصل البشري واحد . فما نشاهده – اليوم – من صراع محتدَم بين : القوميات ، والأديان ، والمذاهب في جميع المجتمعات العربية على وجهٍ أَخَصَّ . يكشف عن وجود عوائق تواجه التسامح ، فهو في نظر الأوساط المتصارعة لا يَعْدُو كونه قيمة أخلاقية ، تتحكم فيه المؤثرات الاجتماعية ، والسياسية .

إن المتأمل في حال الفكر الإسلامي – اليوم – يأسَي لما يجده من استحكام الفُرقة والتنافر ، وشيوع التنابُذ والانقسام ، في واقع مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، ومن هذا التنافر : ما هو ديني ، ومنه ما هو طائفي ، ومنه السياسي ، ومنه الفكري ، ومنه الثقافي ، ومنه الاجتماعي . كذلك استفحل الأمر ليَطَال كافة مجالات الحياة في واقعنا الراهن ، وهذا يؤكد حاجتنا الماسَّة ، إلي إعادة النظر والتفكير العميق في عوائق التسامح في الفكر الإسلامي . " وعلي شبابنا أن يكون متدبراً وواعياً بهذه المتناقضات التي تحيط به ، وأن تكون أيديولوجيته الحقَّة ، هي الأيديولوجية المنطلِقة من ذات أصالته وتراثه ومتمشية مع معطيات بيئته ، ومتجاوبة مع قِيَمِه الحضارية الإسلامية العربية العريقة ... بهدف الاعتزاز بهويتنا الإسلامية العربية ، والاعتزاز بقيمنا الأصيلة وتقاليدنا العريقة ." (١٢٦)

هذا ويُعَدُّ التعصب من أهم عوائق التطبيق الفعلي لقيمة التسامح " فالافتراء علي الدين بأنه يستلزم التعصب ، هي فِرْيَةٌ قائمة علي غير أساس مطلقاً ..... وقد دلنا التاريخ علي أنه بِفَصْل الدين عن الدولة ، انتشرت المبادئ الوجودية ، ولا يمكن القول بأن : الدين قد أدي إلي هذه النتيجة . " (١٢٧) فلا يمكن أن يُتصوَّر وجود مجتمع إنساني مستقر وآمن ، يعيش الناس في ظله بأمان وبسلام ، مع وجود التعصب ، الذي يرفض الحق الثابت والموجود ، ويصادر الفكر الآخر ، ولو كان مُحِقاً ، أو يرفض القومية الأخرى ، وإن كانت صادقة . وفي ذَمِّ مثل هذا التعصب يقول الشنقيطي : : وعلى كل حال ، فكل عاقل لم يَعْمِه التعصب ، يعلم أن تقليد إمام واحد بعينه ، بحيث لا يترك من أقواله شيئاً ، ولا يأخذ من أقوال غيره شيئاً ، وجعْلُ أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله صلي لله عليه وسلم فما وافق أقواله منهما ، جاز العمل به ، وما خالفها منهما ، وجب طرْحُه ، وترْك العمل به ، فلا وَجْهَ له البَّتة ، فهو مخالف : لكتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم . " (١٢٨) من هنا نعرف خطر التعصب بجميع أشكاله على التفكير ، وأنه يقود إلى الانحراف الفكري ، ومن ثمَّ القيام بأعمال تضرّ بالعالم الإسلامي .

كما يُعَدُّ الاحتقان ، والإرهاب من أهم عوائق التطبيق الفعلي لقيمة التسامح: " وأعماله وأساليبه وممارساته ، بجميع أشكاله ومظاهره ، الذي يهدف إلي تقويض حقوق الإنسان وحرياته الأساسية . " (١٢٩) فالتعبئة النفسية والثقافية بين القوي السياسية المتنافسة والمتصارعة في مجتمعنا ، تساهم في توتير الأوضاع ، وتُنْذِرُ باحتمالات كارثية ، لن ينجو من مآسيها أحد ، لذلك يبقي المطلوب – دائماً – هو امتصاص أسباب الاحتقان السياسي ، وتفريغ ضغط هذا الاحتقان ، في إطارِ مشروع السِّلْم المجتمعي ، الذي يتضمن بدائل : سياسية ، وثقافية ، واجتماعية . تُعمِّق من خيار المصلحة الوطنية ، وتُوفِّر الظروف الذاتية والموضوعية لميلاد واقع سياسي جديد ، قِوَامُه : التسامح ، والمشاركة السياسية الحقيقية ، واحترام التعددية السياسية . بالإضافة إلي التطرف المجتمعي والغُلُوُّ ، وظهور الجماعات الإسلامية التي تمارس العنف ؛ من أجل تحقيق

أهدافها المشروعة وغير المشروعة ، القائمة علي : التشدُّد ، والتطرف ، والانغلاق ، المؤدي إلى الإرهاب . وفي نهاية الأمر يبقى محركها الرئيسي ، البُعد عن قيم التسامح . لذا " أُصيبَ المجتمع الإسلامي بالضعف الفكري ، والتفكك الاجتماعي ، وذاق من جَرَّاءِ تلك الإصابة مرارة التأخر ، والضعف الفكري ، الذي إذا ما أصيبت به أمة من الأمم ، أو مجتمع من المجتمعات ، إلا وأصابها انحطاط في التفكير ، وكان جُلُّ همِّها الاهتمام بالخرافات والأساطير . " (١٣٠)

ومن عوائق التطبيق الفعلي للتسامح الإعراض عن منهج الدين الصحيح . والخوض بالباطل في الدين الحنيف ، وتبديل حقائقه الأصيلة . وانتهاك حرية العقيدة (١٣١) والتطرف الديني المتشدد الذي يعني : " التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود ، وجمود الشخص على فَهْمِه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين . " (١٣٢)

لقد كان العرب قبل الإسلام شتاتاً متناثراً ، لا يأتلف ولا يتجمع ، رغم وجود كل عوامل التجمُّع ، من وحدة : الأرض ، والبيئة ، والعادات ، والتقاليد ، واللغة ، والمعتقدات ، والثقافة ، والتاريخ ... ومن هناك التقطهم الإسلام ، بعقيدته الصحيحة ، ومفاهيمه الواضحة ، فكانت هذه المفاهيم وتلك العقيدة ، هي العقيدة التي صنعت من أفراد الجاهلية الأولي ، الذين يحبون الفوضى ، ويكرهون النظام ، وتلتهب حماستهم ، ثم لا تلبث أن تنطفئ ، ... صنعت منهم " خير أمة أُخْرِجَتْ للناس " ولكنْ عَبْرَ المسيرة الطويلة لهذه الأمة خلال التاريخ ، حدثت انحرافات كثيرة في حياه المسلمين .. وكان الانحراف الأخطر في حياتهم ، هو الانحراف عن التسامح الديني . وهكذا أصاب الأمة الإسلامية تَخَلُّفٌ مادِّيٌّ ؛ نتيجة لتخلفها الديني الذي بلغ – عَبْرَ تَرَاكُم السنين – درجات خطيرة ، إلي الحد الذي غابت فيه معالم السنن ، وتشوشت العقائد ، واضطربت المفاهيم ، وبَعُدَتْ الأمة عن التصور الإسلامي للحياة ، فَبَعُدَ واقعها عن النظام الإسلامي للحياة .. ثم إن بُعْد حياتها عن النظام الإسلامي أخذ – بدوره – يبعدها عن التصور الإسلامي من جديد .. وهكذا ظلت هذه الأمة تدور في هذه الحلقة المُفْرَغَة ، ويتم في حياتها ذلك التفاعل النَّكِد ، بفعل عوامل داخلية كامنة في تركيبها التاريخي من ناحية ، وبفعل عوامل خارجية تهاجمها بكل وسيله ، وتُوجَد عوامل التمييع والتمزيق في كيانها من ناحية أخري .... حتى انتهت إلي أنْ تصبح غريبة غُرْبَةً كاملة عن الإسلام ، ولابد أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، إن الموجود اليوم في حياة الأمة ليس هو الإسلام الذي صَنَعَ يوماً خير أمة أُخْرِجَتْ للناس .

ولابد أن نكون صرحاءَ مع أنفسنا ، وبشيء من الإنصاف ، فإن مسلمي – اليوم – ليسوا كالسابقين في الإسلام ، الذين تعايشوا مع الآخَر المختلف عنهم : عقيدةً ، وفكراً ، وسلوكاً ، وأخلاقاً . والذي أذاقهم ألوانَ العذاب ويتَّسِمُ : بالغِلْظَةِ ، والتعصب ، والانغلاق . ومع هذا تعاملوا وتعايشوا معه ، مراعين : الإخاء ، وحُسْنَ الجوار ، وبحقه الطبيعي في معتقده ، وأن له الحق في حمايته ، وتوفير الأمان له علي : نفسه ، وأولاده ، وأمواله . كما أن له حق التعايش السلمي في المجتمع ، كما تَحُثُّ علي ذلك تعاليم الإسلام السمحة فالإسلام يدعو إلي التسامح العام ، والحمة العامة ؛ لأن التسامح هو الذي يداوي القلوب المكلومة ويجتذب النفوس النافرة . ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الأسوة الحسنة ، فها هو النبي السَّمْح الكريم ﷺ يدخل مكة منتصراً ، بعد ما لقِيَ من مشركي مكة ما لاقَي هو وأصحابه من ألوان العذاب . ومع ذلك فإنه : لم

يقتل ، ولم يُعاقب ، ولم ينتقم منهم ، وكان قادراً علي أن يفعل ، لكنه عفا وصفح عنهم . إننا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلي : " دعم روح الأخوة والتعارُف ، مما يؤدي إلى دعم القيم الأخلاقية ، وتوحيد السلوك الاجتماعي ، ونبذ كل ما يُضعِف الروح الإيمانية والاجتماعية ، من قيم سالبة : كالظلم ، والحسد ، والسخرية ، والغيبة ، والنميمة . إلى غير ذلك من أمراض اجتماعية تُضعِف البناءَ الاجتماعي . (١٣٣)

نتائج الدراسة :

بعد أن تناولت هذه الدراسة إشكالية التسامح وتأسيس الخطاب الإنساني في الإسلام بين مثالية الفكر وأزمة التطبيق ، توصلت إلي بعض النتائج والتي من أهمها :

١ – تكمن إشكالية التسامح في أنه مفهوم غائب في الخطاب الفلسفي عموماً ، سواء تعلق الأمر بالفلسفة الإسلامية ، أم الفلسفة اليونانية ، أم بالفلسفة الأوروبية – باستثناء خطاب سياسي لاهوتي أنتجه بعض فلاسفة القرن السابع عشر في ظروف معينة – إن تاريخ الفلسفة شهد مذاهب كثيرة ومتنوعة في الأخلاق . وهناك من الفلاسفة من ركزوا جهدهم الفلسفي ، أو قصروه حصراً على ميدان الأخلاق ، ومع ذلك فنحن لا نجد في قاموس مصطلحاتهم مفهوم التسامح إلا نادراً وبصورة عرضية في الغالب . إن سجل القيم الأخلاقية التي حللها الفلاسفة ، والتي تتسلسل من الخير والحق والواجب والفضيلة والعدالة ، إلى الرحمة والشفقة والإحسان والإيثار ، نادراً ما نعثر فيه على مفهوم التسامح كقيمة أخلاقية فلسفية ، وإذا غاب المفهوم فمن الطبيعي أن تغيب الفلسفة التي تؤسس نفسها عليه .

٢ – إن السبب في غياب التسامح أنه ليس مفهوماً أصيلاً في الفلسفة ، بل هو يقع بين الفلسفة والأيديولوجية الدليل على ذلك هو أن هذه المفردة لم تدخل الفلسفة من باب الفلسفة نفسها ، بل من باب الفكر الذي يعبر عن الصراع الاجتماعي ، أو يحاول التخفيف منه ، وبعبارة أخرى باب الأيديولوجية . ولذلك بقي مفهوم التسامح موضوع تشكيك واعتراض ، ولم يقبل في رحاب الفلسفة إلا بامتعاض ومع كثير من التسامح والتساهل .

٣ – إذا كانت فكرة التسامح بسيطة وشفافة في حضورها، فإنها كارثية وقاتلة في غيابها . إن غياب التسامح يعني انتشار ظاهرة التعصب والعنف وسيادة عقلية التحريم والتجريم من قبل جماعات التطرف والتشدد سواء على الصعيد الفكري أو السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الديني أو ما يتعلق بنمط الحياة .

٤ – أسس الإسلام للتسامح أسساً راسخة ، وعقد له مواثيق متينة ، وفصّل تفصّيلاً مبيناً بين واجب المسلمين بعضهم مع بعض ، في تضامنهم وتوادهم من جهة ما يجمعهم مع الجماعة الإسلامية ، وبين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى ، وهذه الأسس تتمثل في عدة عناصر أساسية على النحو التالي : أن الإسلام الذي أتى به جميع الأنبياء عليهم السلام ، وحده هو الدين الحق، عدم إكراه غير المسلمين لاعتناق الإسلام ، العدل والإحسان ، عدم إيذاء غير المسلمين بقول أو فعل ، عدم السماح للباطل بالظهور .

٥ – إنّ عالم اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعّال وقبول المختلف والتعايش الإيجابي بين البشر أكثر من أي وقت مضى ، نظراً لأنّ التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب ، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة ، ويبحثون عن إيجاد مساحة مشتركة مع الآخر .

٦ – يعاني الخطاب الإنساني أزمة من جهات متعددة ، ويمكن رصد أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر كأنموذج لتأزم لخطاب الإنساني ، بالنظر إلى مفهومه وطبيعة منطقه .

٧ – عكست وثيقة المدينة مفهوم التسامح وترجمت ذلك في بنودها ونصوصها فجاءت لتوضح أن واضع بنودها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وما يحمله من رسالة هي أصدق وأنبل رسالة جاءت للبشرية

والإنسانية لعباد الله أقر تكريم البشر واحترامهم وربطهم برباط مقدس هو رباط المؤاخاة والتسامح وأن الوثيقة هدفت إلى انضباط الأمة وعلو همتها وارتفاع شأنها.

٨- جاءت نصوص الوثيقة حاملة لمبدأ المساواة والإخاء والتسامح وهذه الأمور مجتمعة ، تعد أحد حقوق الإنسان في الحياة الإنسانية ، والمساواة في الإسلام ، وداخل الوثيقة تعد حقلاً خصباً في ميدان الحقوق والواجبات بين كافة الناس حتى ولو مع الأعداء وهذا المبدأ يكفل للمواطنين جميعاً في ظل الإنسانية الإسلامية جميع الحريات وكافة الحقوق والواجبات العامة .

٩ – فلسفة التسامح تتميز بالمثالية البراقة التي يدعو لها الجميع ، متفقين علي قيمة التسامح نظرياً وأننا لم نكن في يوم من الأيام مجتمعاً ملائكياً ، خالياً من العيوب والمعاصي ، وأن مجتمعاتنا العربية والإسلامية مجتمعات بسيطة تتسم بطابع التكاتف والتسامح والتعاضد يقف بعضها إلى جانب بعض في أوقات الأزمات .. يتقبل أفرادها النقد والتوجيه .. وغالباً ما يتمكنون من احتواء أية مشكلة قبل استفحالها . أما من ناحية التطبيق الفعلي لهذه الرؤي البراقة فنكاد لا نجد له أثراً علي أرض الواقع ، فالمجتمعات غارقة في الحروب والاقتتال والدمار والتسابق نحو اكتساب ما يدمر حياة الإنسان فرداً وجماعة وربما لم تكتسب الإنسانية طوال تاريخها من وسائل التدمير الذاتي مثل ما هو متوفر لها في هذا الزمن . فما زال العالم بحاجة لتثبيت إيمانه أكثر بالتسامح الفعلي علي أرض الواقع فالواضح أننا لم نتعلم كثيراً من تجاربنا ، وان المسيرة إلى ما بعد التسامح حافلة بالعقبات ، حيث تبقى الخيارات محدودة ليعيش الناس بسلام في غياب الحوار والتسامح .

هوامش الدراسة .

(١) رضا إبراهيم إبراهيم السيد : التسامح العالمي والتعايش السلمي من منظور الإسلام ، حولية كلية الدعوة الإسلامية ، العدد ٣٢ ، المجد ٢ القاهرة ، ٢٠٢٠ ، ص ٨٣١ .

(٢) عبد اللطيف بن إبراهيم الحسيني : تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٩٩٩ ، ص ٣٥ .

(٣) حسن أبو غدة : حاجتنا إلي التعامل بثقافة التسامح ، مجلة الوعي الإسلامي ، وزارة الأققاف والشؤون الإسلامية ، العدد ٥٧٦ ، الكويت ، ٢٠١٣ ، ص ٢٣ .

(٤) سعيد شبار : المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية ، سلسة كتاب الأمة (٧٨) قطر ، رجب ١٤٢١ ، ص ٢٩ . بتصرف .

(٥) محمد عمارة : معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام ، نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٢

(٦) ابن فارس أبو الحسن : معجم مقاييس اللغة ، ط ٢ ، المجلد ٣ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩٩ .

(٧) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، دار الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٣١٢ .

(٨) محمد مكرم علي أبو الفضل ابن منظور : لسان العرب ، المجلد ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٨٨ .

(٩) محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨٨ .

(١٠) محمد طاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٦ .

(١١) ياسين بن علي : مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب ، ط ١ ، دار الدعوة الإسلامية للنشر ، طرابلس ، ٢٠٠٦ ، ص ١٣.

(١٢) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص ٢٨ .

(١٣) محمد أركون : قضايا في نقد العقل الديني ؛ كيف نفهم الإسلام اليوم ، ط ٢ ، ترجمة وتعليق هاشم صالح ، دار الطليعة للطباعة ، والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٤٣ .

(١٤) حسام الدين درويش : ما التسامح ؟ التسامح بوصفه مفهوماً معيارياً كثيفاً ، المجلة السورية للعلوم الإنسانية ، العدد ١٠ ، ٢٠١٩ ، ص ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(15) CF. David Heyd ,ed. Toleration : An Evasive Virtue , Princeton , Princeton , University press , 1996 ,.

(16) CF . .luca Di Blasi and Christoph F. E .Holzhey , Epilogue , Tensions in Tolerance , in Wendy Brown &Rainer Forst , the Power of Tolerance , A Debate , edited by Luca Di Blasi and Christopher F,E, Holzhey , New York , Columbia University Press , 2014 , p 72 .

(17) Anna Elisabetta Galeotti , Toleration , as Recognition , Cambridge University Press , 2003 .

(١٨) حسام الدين درويش : ما التسامح ؟ التسامح بوصفه مفهوماً معيارياً كثيفاً ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(١٩) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٢٠) البير شيغيل : تاريخ فكرة التسامح من العصر القديم إلي العصر الوسيط ، ترجمة المبارك الغروسي ، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، ٢٠٢١ ، ص ٣ .

(٢١) حسن مجيد العبيدي : هل التسامح فكرة فلسفية ؟ دراسة من منظور مختلف ، المؤتمر الفلسفي العربي ، تحت عنوان التسامح في الفكر الفلسفي والديني ، بيروت ، ٢٠١٣ ، ص ١٢ .

(٢٢) محمد عبد الرحمن مرحبا : مع الفلسفة اليونانية ، ط ٣، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٥٨.

(23) John Locoke , Aletter on toleration , Indianapdis , Bobbs Merrill , 1955, p 17 .

(24) Ibid , p 17 .

(25) Ibid , p 17 .

(26) Victor Nuov , ed , Tohn Locke : Writings on Religion , New York , Oxford University Press , 2002 , Introduction , px vill .

(٢٧) فولتير : رسالة في التسامح ، ط١ ، دار بترا للنشر والتوزيع ، سوريا ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٣ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ص ٤٧ – ٤٨ .
(٢٩) عابدين الحسن : الجذور التاريخية واللاهوتية في نشأة مفهوم التسامح ، مجلة مدارات فلسفية ، العدد ٦ ، المغرب ، ٢٠٠١ ، ص ١٦٩ .
(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .
(٣١) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .
(٣٢) إبراهيم عراب : التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي ، المستقبل العربي ، العدد ٢٢٤ ، ١٩٩٧ ، ص ٥ .
(٣٣) فائز صالح محمود اللهيبي : التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، المجلد ٩ العدد ٢ ، الموصل ٢٠٠٩ ، ص ٤٧٨ .
(٣٤) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .
(٣٥) سورة البقرة : الآية ٦٢ .
(٣٦) سورة آل عمران : الآية ٦٤
(٣٧) سورة التغابن الآية : ١٤
(٣٨) سورة البقرة : من الآية ١٩٧
(٣٩) سورة الجاثية : الآية ١٤
(٤٠) سورة الزخرف : الآية ٨٩
(٤١) سورة الحجر : الآية ٨٥
(٤٢) فائز صالح محمود اللهيبي : التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٤٨٧ .
(٤٣) سورة فصلت : الآية ٣٤ .
(٤٤) محمد أركون : أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ، ترجمة وتعليق هاشم صالح ، ط ١ ، دار الساقي ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ١١٢ .
(٤٥) محمد أحمد عواد : منطلقات التفاهم عند الفلاسفة المسلمين ، مجلة التسامح ، العدد ١ ، عمان ، ٢٠٠٠ ، ص ٤٥ .
(٤٦) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .
(٤٧) صباح حمودي نصيف : التسامح وتجلياته في الفكر العربي الحديث محمد عبده أنموذجاً ، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد ٢٤ ، ٢٠١٧ ، ص ٦٧٥ .
(٤٨) عبد المحسن شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي ، ط ١ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص ص ٦٢ – ٦٣ .
(٤٩) أنظر : عبد الرحمن معاشي : مظاهر التسامح والاعتدال وأثرهما في تأسيس الخطاب الإنساني وتوجيهه ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد ٣٨ ، الجزائر ، ٢٠١٨ .
(٥٠) محمود حمدي زقزوق : الإسلام وقضايا الحوار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٧٧ .
(٥١) سورة النساء : الآية ١ .
(٥٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .
(٥٣) محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ؛ المقدمات العامة – الفرق الإسلامية وعلم الكلام – الفلسفة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ٤٣ .
(٥٤) جلال العشري : حقيقة الفلسفات الإسلامية ، ط١ ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،١٩٩١ ، ص ٧٩ .
(٥٥) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .
(٥٦) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .
(٥٧) محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣٠.
(٥٨) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .
(٥٩) سورة البقرة : الآية ١١١ .
(٦٠) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .
(٦١) عبد المقصود عبد الغني خيشة : في الفلسفة الإسلامية ؛ دراسة تحليلية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٩١، ص ٦٢ .
(٦٢) سورة محمد : الآية ٢٤ .

(٦٣) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .
(٦٤) محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، مرجع سابق ، ص ٢٦ . وكذلك :
– ..... : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٧ .
– عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ص ٢١٤ .
(٦٥) سورة الملك : الآية ١٠ .
(٦٦) السيد محمد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ٧٢ . وكذلك :
– السيد الجميلي : عظمة الإسلام وتأخر المسلمين ، ط ٢ ، دار الريان للتراث ، ١٩٨٨ ، ص ٥١ .
– أحمد الحوفي : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية دراسات في الإسلام ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٩ – ١٠.
(٦٧) محمد عبد الله دراز : نظرات في الإسلام ، بدون دار نشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .
(٦٨) سورة الأنعام : الآية ٣٧ .
(٦٩) سعيد مراد : العقل الفلسفي في الإسلام ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ص ٤٣ – ٤٤ . بتصرف . وكذلك :
– عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٢١٦ .
(٧٠) حسن السخاوي : الأخلاق الغربية في الميزان ، مطابع جريدة السفير ، بدون تاريخ ، ص ١٠.
(٧١) سورة الإسراء : الآية ٩ .
(٧٢) هاني عبد الرحمن مكروم : التصور العقلي ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٤٣ .
(٧٣) سورة الزخرف : الآية ٨٩
(٧٤) سورة النحل : الآية ١٢٥
(٧٥) سورة البقرة : الآية ١٠٩
(٧٦) محمد عمارة : السماحة الإسلامية النظرية والتطبيق ، مقال ضمن أبحاث المؤتمر السادس عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ١١٣ .
(٧٧) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ السياسي والحضارة للدولة العربية ، دار النهضة ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .
(٧٨) حمادة أحمد خميس : قسم التعايش السلمي في ضوء وثيقة المدينة ، كلية التربية جامعة الأزهر مجلة التربية ، العدد ١٩٥ ، الجزء ٥ ، ٢٠٠٢ ، ص ٧١٧ .
(٧٩) محمود قمبر : التسامح والإخاء الإنساني في الإسلام ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠١٣ ، ص ص ٤١ – ٤٢ .
(٨٠) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها ، مصطفي السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار القلم ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٤٧ .
(٨١) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
(٨٢) المصدر السابق ، ص ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(٨٣) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
(٨٤) إبراهيم أحمد العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ، معهد الدراسات الإسلامية ، دار النهضة القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧٤
(٨٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .
(٨٦) محمد علي الهاشمي : القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية ، بحث منشور بكتاب الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، ط ٣ ، مجلد ١ ، ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقدة بالرياض في الفترة ٢٠ – ٢٧ ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ الموافق ١٨ – ٢٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٥٥ .
(٨٧) إبراهيم أحمد العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٧١ .
(٨٨) كوتستانسي جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، تعريب محمد التونجي ، ط ١ ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٣ ، ص ١٩٢ .
(٨٩) محمد الصالح الصديق : مفكرون غربيون يعتنقون الإسلام ويتحدثون عنه ، دار هومه ، الجزائر ، ٢٠٠٣ ، ص ٨١ .
(٩٠) سورة الجاثية : الآية ١٤ .
(٩١) سورة التوبة : الآية ٦

(٩٢) رضا إبراهيم إبراهيم السيد : التسامح العالمي والتعايش السلمي من منظور الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٨٣٣ .
(٩٣) محمد محفوظ : الحرية والإصلاح في العالم العربي ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .
(٩٤) موفق محمود : العيش سوية الآخر الذي هو الأنا ، مجلة دراسات اجتماعية ، بيت الحكمة ، بغداد ، العدد ٢٩ ، ٢٠١٢ ، ص ص ١٠٢ – ١٠٤ .
(٩٥) ممدوح الشيخ : ثقافة قبول الآخر ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٠ .
(٩٦) ميلاد حنا : قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٠٣ – ١٠٤ .
(٩٧) سورة الأعراف : الآية ٨٥ .
(٩٨) عمار حيدل : حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني ، دار الحامد ، الأردن ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٧ .
(٩٩) سورة الكهف : الآية ٢٩ .
(١٠٠) سورة الكافرون : الآية ٦ .
(١٠١) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(١٠٢) سورة المائدة : الآية ٤٦ .
(١٠٣) سورة آل عمران : الآية ٧٥ .
(١٠٤) سعيد إسماعيل علي : الحوار منهجاً وثقافة ، دار السلام للطباعة والنشر والتويع ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ص ٤٦ .
(١٠٥) سورة البقرة : من الآية ٢١٣
(١٠٦) سورة الروم : الآية ٢٢
(١٠٧) سورة هود : الآية ١١٨
(١٠٨) محمد عمارة : الإسلام والآخر من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ مكتبة الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ص ١٧ – ١٩ .
(١٠٩) أحمد الخمليش : مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة " حقيقة الإسلام في عالم متغير " المؤتمر العام الرابع عشر ، في الفترة من ٨ – ١١ ربيع الأول ١٤٢٣ الموافق ٢٠ – ٢٣ مايو ٢٠٠٢ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٩٤٣ .
(١١٠) حمادة أحمد خميس : قسم التعايش السلمي في ضوء وثيقة المدينة ، مرجع سابق ، ص ٧١٨ .
(١١١) المرجع السابق ، ص ٧١٨ .
(١١٢) أحمد عيساوي : تعثر الخطاب الإسلامي المعاصر في الخطاب الإسلامي المعاصر ، دعوة للتقويم وإعادة النظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مركز البحوث والدراسات ، ٢٠٠٦ ، ص ٤٦٨ .
(١١٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٨ .
(١١٤) طارق وفيق : في مسألة الحوار والمشاركة المجتمعية في مصر رؤية تحليلية أبعاد الأزمة ، المكتبة الأكاديمية القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ص ٤٠ – ٤١ .
(١١٥) عبد المحسن شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .
(١١٦) المرجع السابق ، ص ٤٠ .
(١١٧) سورة الحجرات : الآية ١٣ .
(١١٨) عبد الله علي العليان : حوار الحضارات في القرن الواحد والعشرين رؤية لإسلامية للحوار ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ١٩٣
(١١٩) رضا إبراهيم إبراهيم السيد : التسامح العالمي والتعايش السلمي من منظور الإسلام ، مرجع سابق، ص ٨٣٣ .
(١٢٠) عبد المحسن شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .
(١٢١) علي أوميل : في شرعية الاختلاف ، ط ١ ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، ١٩٩١ ، ص ٨٩ .
(١٢٢) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ السياسي والحضارة للدولة العربية ، دار النهضة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٩٧ .
(١٢٣) عبد الشافي محمد عبد اللطيف : الإدارة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم ، مجموعة المحاضرات المنشورة بالموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٣٧٦ .
(١٢٤) عبد الشافي محمد عبد اللطيف : الإدارة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم ، مجموعة المحاضرات المنشورة بالموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ص ٣٧٦ – ٣٧٩ .

(١٢٥) سميح محسن : التسامح مقاربات تاريخية ومفاهيمية ، مجلة التسامح ، العدد ١ ، المجلد ٣ ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٤ .
(١٢٦) رشدي فكار : تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦ .
(١٢٧) خورشيد أحمد : الإسلام ... والتعصب ، ترجمة سعد زغلول أبو سنة ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص ٢٨ .
(١٢٨) محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي : أضواء البيان ، طبع دار الفكر، بيروت ، ١٤١٥ ، ٣٤٠/٧ .
(١٢٩) حسنين المحمدي بوادي : حقوق الإنسان بين مطرقة الإرهاب وسندان الغرب ، دار الفكر العربي ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٦٥ .
(١٣٠) أحمد عبد الرحيم السايح : مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٢٧.
(١٣١) إسماعيل الغزال : الإرهاب والقانون الدولي ، ط ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٦ .
(١٣٢) حسين عبد الحميد أحمد رشوان : الإرهاب والتطرف من منظور علم الاجتماع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر ، ٢٠٠٢ ، ص ١٥ .
(١٣٣) علي خليل أبو العينين : القيم الإسلامية والتربية ، مكتبة إبراهيم الحلبي ، ١٩٨٨ ، ص ١٦٨ وما بعدها .

قائمة المصادر والمراجع .

أ : المصادر المترجمة إلي اللغة العربية .

١ – البير شيغيل : تاريخ فكرة التسامح من العصر القديم إلي العصر الوسيط ، ترجمة المبارك الغروسي ، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، ٢٠٢١ .
٢ – محمد أركون : قضايا في نقد العقل الديني ؛ كيف نفهم الإسلام اليوم ، ط ٢ ، ترجمة وتعليق هاشم صالح ، دار الطليعة للطباعة ، والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

ب : المصادر الأجنبية .

1- Anna Elisabetta Galeotti , Toleration , as Recognition , Cambridge University Press , 2003 .
2- CF. David Heyd ,ed. Toleration : An Evasive Virtue , Princeton , Princeton , University press , 1996 .
3- CF . .luca Di Blasi and Christoph F. E .Holzhey , Epilogue , Tensions in Tolerance , in Wendy Brown &Rainer Forst , the Power of Tolerance , A Debate , edited by Luca Di Blasi and Christopher F,E, Holzhey , New York , Columbia University Press , 2014 .
4 - John Locoke , Aletter on toleration , Indianapdis , Bobbs Merrill , 1955
5 - Victor Nuov , ed , Tohn Locke : Writings on Religion , New York , Oxford University Press , 2002 .

ثانياً : المراجع .

١ : باللغة العربية .

أ– الكتب .

١– إبراهيم أحمد العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ، معهد الدراسات الإسلامية ، دار النهضة القاهرة ، بدون تاريخ.
٢– إبراهيم عراب : التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي ، المستقبل العربي ، العدد ٢٢٤ ، ١٩٩٧ .
٣– ابن فارس أبو الحسن : معجم مقاييس اللغة ، ط ٢ ، المجلد ٣ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٤- ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها ، مصطفي السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار القلم ، بيروت ، بدون تاريخ .
٥- أحمد الحوفي : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية دراسات في الإسلام ، القاهرة ، ١٩٧٥.
٦- أحمد الخمليش : مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة " حقيقة الإسلام في عالم متغير " المؤتمر العام الرابع عشر ، في الفترة من ٨ - ١١ ربيع الأول ١٤٢٣ الموافق ٢٠ - ٢٣ مايو ٢٠٠٢ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
٧- أحمد عبد الرحيم السايح : مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٨- أحمد عيساوي : تعثر الخطاب الإسلامي المعاصر في الخطاب الإسلامي المعاصر ، دعوة للتقويم وإعادة النظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مركز البحوث والدراسات ، ٢٠٠٦ .
٩- إسماعيل الغزال : الإرهاب والقانون الدولي ، ط ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
١٠- السيد الجميلي : عظمة الإسلام وتأخر المسلمين ، ط ٢ ، دار الريان للتراث ، ١٩٨٨ .
١١- السيد عبد العزيز سالم : التاريخ السياسي والحضارة للدولة العربية ، دار النهضة ، بيروت ، بدون تاريخ .
١٢- السيد محمد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .
١٣- جلال العشري : حقيقة الفلسفات الإسلامية ، ط١ ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،١٩٩١ .
١٤- حسن السخاوي : الأخلاق الغربية في الميزان ، مطابع جريدة السفير ، بدون تاريخ .
١٥- حسن مجيد العبيدي : هل التسامح فكرة فلسفية ؟ دراسة من منظور مختلف ، المؤتمر الفلسفي العربي ، تحت عنوان التسامح في الفكر الفلسفي والديني ، بيروت ، ٢٠١٣ .
١٦- حسنين المحمدي بوادي : حقوق الإنسان بين مطرقة الإرهاب وسندان الغرب ، دار الفكر العربي ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .
١٧- حسين عبد الحميد أحمد رشوان : الإرهاب والتطرف من منظور علم الاجتماع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر ، ٢٠٠٢ .
١٨- خورشيد أحمد : الإسلام ... والتعصب ، ترجمة سعد زغلول أبو سنة ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٧، ٢٨ .
١٩- رشدي فكار : تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٧
٢٠- رضا إبراهيم إبراهيم السيد : التسامح العالمي والتعايش السلمي من منظور الإسلام ، حولية كلية الدعوة الإسلامية ، العدد ٣٢ ، المجد ٢ القاهرة ، ٢٠٢٠ .
٢١- سعيد إسماعيل علي : الحوار منهجاً وثقافة ، دار السلام للطباعة والنشر والتويع ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .
٢٢- سعيد شبار : المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية ، سلسة كتاب الأمة (٧٨) قطر ، رجب .

٢٣- سعيد مراد : العقل الفلسفي في الإسلام ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
٢٤- طارق وفيق : في مسألة الحوار والمشاركة المجتمعية في مصر رؤية تحليلية أبعاد الأزمة ، المكتبة الأكاديمية القاهرة ، ٢٠٠٥ .
٢٥- عبد الشافي محمد عبد اللطيف : الإدارة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم ، مجموعة المحاضرات المنشورة بالموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
٢٦- عبد اللطيف بن إبراهيم الحسيني : تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٩٩٩ .
٢٧ - عبد الله علي العليان : حوار الحضارات في القرن الواحد والعشرين رؤية لإسلامية للحوار ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ .
٢٨- عبد المحسن شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي ، ط ١ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
٢٩- عبد المقصود عبد الغني خيشة : في الفلسفة الإسلامية ؛ دراسة تحليلية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٩١.
٣٠- علي أوميل : في شرعية الاختلاف ، ط ١ ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، ١٩٩١ .
٣١- علي خليل أبو العينين : القيم الإسلامية والتربية ، مكتبة إبراهيم الحلبي ، ١٩٨٨ .
٣٢- عمار حيدل : حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني ، دار الحامد ، الأردن ، ٢٠٠٣ .
٣٣- عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ . .
٣٤- فولتير : رسالة في التسامح ، ط١ ، دار بترا للنشر والتوزيع ، سوريا ، ٢٠٠٩ .
٣٥- كوتستانسي جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، تعريب محمد التونجي ، ط ١ ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٣ ..
٣٦ - محمد أركون : أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ، ترجمة وتعليق هاشم صالح ، ط ١ ، دار الساقي ، بيروت ، ١٩٩٣ .
٣٧- محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي : أضواء البيان ، طبع دار الفكر، بيروت ، ١٤١٥ .
٣٨- محمد الصالح الصديق : مفكرون غربيون يعتنقون الإسلام ويتحدثون عنه ، دار هومه ، الجزائر ، ٢٠٠٣.
٣٩- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، دار الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٣ .
٤٠- محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٧٨.
٤١- محمد طاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨٥.

٤٢- محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، ط١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧ .
٤٣- محمد عبد الرحمن مرحبا : مع الفلسفة اليونانية ، ط ٣ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٨ .
٤٤- محمد عبد الله دراز : نظرات في الإسلام ، بدون دار نشر ، ١٩٧٢ .
٤٥ - محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ؛ المقدمات العامة - الفرق الإسلامية وعلم الكلام - الفلسفة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .
٤٦- محمد علي الهاشمي : القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية ، بحث منشور بكتاب الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، ط ٣ ، مجلد ١ ، ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقدة بالرياض في الفترة ٢٠ - ٢٧ ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ الموافق ١٨ - ٢٥ مارس ١٩٧٩ .
٤٧- محمد عمارة : الإسلام والآخر من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ مكتبة الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
٤٨- محمد عمارة : السماحة الإسلامية النظرية والتطبيق ، مقال ضمن أبحاث المؤتمر السادس عشر للمجلس الأعلي للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .
٤٩- محمد عمارة : معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام ، نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٥٠- محمد محفوظ : الحرية والإصلاح في العالم العربي ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
٥١- محمد مكرم علي أبو الفضل ابن منظور : لسان العرب ، المجلد ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١
٥٢- محمود حمدي زقزوق : الإسلام وقضايا الحوار ، ترجمة مصطفى ماهر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .
٥٣ - محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٥٤- محمود حمدي زقزوق : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٨٤
٥٥- محمود قمبر : التسامح والإخاء الإنساني في الإسلام ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠١٣ .
٥٦- ممدوح الشيخ : ثقافة قبول الآخر ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ٢٠٠٧ .
٥٧- ميلاد حنا : قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
٥٨- هاني عبد الرحمن مكروم : التصور العقلي ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٥٩- ياسين بن علي : مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب ، ط ١ ، دار الدعوة الإسلامية للنشر ، طرابلس ، ٢٠٠٦ .

ب : المجلات العلمية .

١- حسن أبو غدة : حاجتنا إلي التعامل بثقافة التسامح ، مجلة الوعي الإسلامي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، العدد ٥٧٦ ، الكويت ، ٢٠١٣ .
٢- سميح محسن : التسامح مقاربات تاريخية ومفاهيمية ، مجلة التسامح ، العدد ١ ، المجلد ٣ ، بيروت ، ٢٠٠٣ .

٣- حسام الدين درويش : ما التسامح ؟ التسامح بوصفه مفهوماً معيارياً كثيفاً المجلة السورية للعلوم الإنسانية ، العدد ١٠ ، ٢٠١٩ .
٤- عابدين الحسن : الجذور التاريخية واللاهوتية في نشأة مفهوم التسامح ، مجلة مدارات فلسفية ، العدد ٦ ، المغرب ، ٢٠٠١ .
٥- فائز صالح محمود اللهيبي : التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، المجلد ٩ العدد ٢ ، الموصل .٢٠٠٩
٦- محمد أحمد عواد : منطلقات التفاهم عند الفلاسفة المسلمين ، مجلة التسامح ، العدد ١ ، عمان ، ٢٠٠٠ .
٧- صباح حمودي نصيف : التسامح وتجلياته في الفكر العربي الحديث محمد عبده أنموذجاً ، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد ٢٤ ، ٢٠١٧ .
٨- عبد الرحمن معاشي : مظاهر التسامح والاعتدال وأثرهما في تأسيس الخطاب الإنساني وتوجيهه ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد ٣٨ ، الجزائر ، ٢٠١٨ .
٩- حمادة أحمد خميس : قسم التعايش السلمي في ضوء وثيقة المدينة ، كلية التربية جامعة الأزهر مجلة التربية ، العدد ١٩٥ ، الجزء ٥ ، ٢٠٠٢ .
١٠- موفق محمود : العيش سوية الآخر الذي هو الأنا ، مجلة دراسات اجتماعية ، بيت الحكمة ، بغداد ، العدد ٢٩ ، ٢٠١٢ .

The Problem Of Tolerance And The Establishment Of Human Discourse In Islam Between The Idealism Of Thought And The Crisis Of Application.

By

Dr. Essam Kamal Abdo Mohamed Al-Masry

Assistant Professor of Islamic Ethics

Faculty of Arts, Damanhour University

Abstract:

This study dealt with the problem of tolerance and the establishment of human discourse in Islam, from which the problem of philosophical tolerance emerged between the absence of the concept and the presence of meaning, as the concept of tolerance was absent in the Greek philosophical results, as well as in Islamic philosophy, and this concept remained the subject of questioning and objection. And it was not accepted into the field of philosophy, except with resentment. The concept was absent, but it retained the presence of the meaning, as it came close to or indicates its meaning when the call was made for consultation, synergy, communication, and compassion and other meanings calling for the right to difference that does not cancel the coalition between people.

The study also dealt with the establishment of the human tolerant discourse in Islam, and how Islam raised the slogan of tolerance in the human discourse as a total and indivisible law, and made it a constitution for human life, as there is no virtue for anyone except with piety and good deeds. It is tolerance that seems - sometimes - beyond human capacity. Islam embraced everyone With this enlightened Islamic horizon of tolerance and made faith in it inclusive of all that was revealed by the heavens, and thus Islam made the other a part of the self, and with this unprecedented level of tolerance, it exceeded the mere recognition and acceptance of the other.

We also presented the manifestations of the human tolerant discourse and chose from the noble Sunnah (The values of Medina Document Items), as Medina, before the migration of the Messenger, may God's prayers and peace be upon him, was a scene of wars and long bloody battles. Customs and laws that have nothing to do with monotheistic religions, and they remained in this state, until the

Messenger, May God bless him and grant him peace, came to them and built a new society based on the foundations of tolerance and stability. And we showed from the Medina Document an aspect of the values of tolerance and fraternity, which is considered a solution to the problem of tolerance in Islamic thought.

Then we concluded the study by talking about the ethics of tolerance in Islam (idealism of thought and obstacles to application) to make it clear to us the supremacy of Islamic thought and its tolerant idealism, despite the crisis of the actual application of these ideal principles in contemporary Islamic thought. This witnesses a torrent of hostility, grudges, and sharp polarization of each of us towards the other.

Keywords: Problematic, Tolerance, Brotherhood, Human Discourse, Islamic Thought, City Document, Justice, Equality, the Other, Peaceful Coexistence.